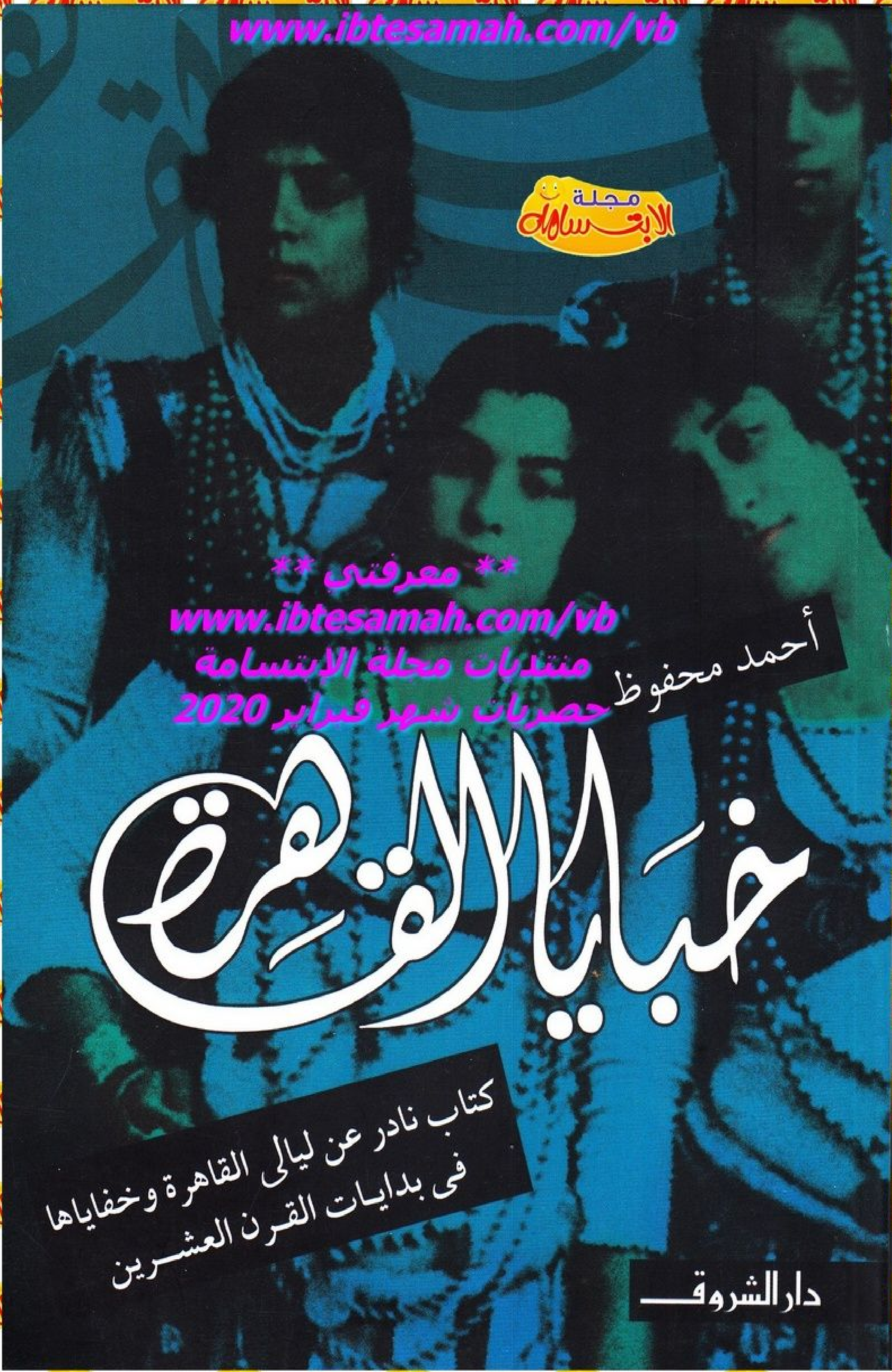

أحمد محفوظ
خبايا القاهرة
كتاب نادر عن ليالى القاهرة وخفاياها
فى بدايات القرن العشرين
دار الشروق

مجلة الابتسامة

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر فبراير 2020 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

خبايا القاهرة

الطبعة الأولــى ٢٠٠٨
الطبعة الثانيـــة ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٣٤٣٣/ ٢٠٠٨
ISBN 978-977-09-2318-3

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

أحمد محفوظ

خبايا القاهرة

كتاب نادر عن ليالى القاهرة وخفاياها
فى بدايات القرن العشـــرين

دار الشروق

المحتـــويات

تقـديم

فروق التوقيت الحضارى

بقلم

يوسف الشريف

هذا كتاب مجهول الهوية والنسب، فحتى مؤلفه الأستاذ أحمد محفوظ لا نعرف له مهنة أو عنواناً أو عمراً، كما لا نعرف له إنتاجاً أدبياً أو معرفياً سابقاً أو لاحقاً، إذ كل ما وصلنا عنه من المعلومات عنايته بالتنويه عن عزمه على طبع الكتاب فى دار الناشر العربى عام ١٩٥٨، لكن على ما يبدو أن ذلك لم يتحقق، وإلا لماذا أعيانا البحث عنه دون جدوى لا فى المكتبات العامة والخاصة ولا فى سجلات دار الكتب، بينما وصلنا الكتاب بالصدفة نسخة خطية جميلة وليس الأصل، ثم إذا بنا نكتشف له فيما بعد، طبعة شعبية من القطع الصغير رديئة غير معتمدة ومليئة بالأخطاء، بينما حرص الأستاذ أحمد محفوظ أن يذكر بين سطوره أن ثمة علاقة أدبية كانت تربطه بالشاعر الكبير حافظ إبراهيم وكم كتب عنه، مما يعنى أنه كان معمرا أو كبيرا فى السن عام ١٩٥٨، وإذن لا مفر من النظر إلى كتاب «خبايا القاهرة» وتقييم محتواه التاريخى والمعرفى وكأنه سقط المتاع الذى يتخلف أحيانا

عن المسافر العجول، لا بالمعنى التافه الذى يفتقر إلى القيمة المادية أو المعنوية للأشياء، وإنما لافتقار المؤلف للحرص الواجب وحسن التدبير للحفاظ على متاعه المعرفى من النسيان والضياع فى زحمة الحياة، خاصة أن هذا الكتاب نادر فى موضوعه واختيار مادته، حيث يندرج تحت باب «التاريخ الوجدانى»!

ولعلنا نحسب من هذه الزاوية أنه إسهام مقدر ومطلوب إزاء استكمال نقص معيب فى ذاكرتنا التاريخية، إذ غالبا ما نجد اهتماما وافرا فى مجتمعاتنا الشرقية بكتابة التاريخ السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى أو الثقافى، دون أن يعير التاريخ الوجدانى التفاتة أحد من الكتاب والباحثين أو المؤرخين، رغم أن مجرد تسجيل هذا الجانب من النشاط الإنسانى، ينطوى على فائدة محققة فى التعرف على الأجواء المعنوية والمزاجية للأمم والشعوب خلال حقبة معينة أو عصر كامل، ومدى تأثرها وتأثيرها على الأوضاع المعيشية، موصولة عضوياً بمساحات الحريات المكفولة للتعبير، وكذا الأحوال الاقتصادية.. يسرا أم عسرا، وكيف ولماذا وعبر أى الوسائل والآليات كان المجتمع يفصح عن مسراته وأحزانه، وحماسه وإحباطاته، ونجاحاته وإخفاقاته، ورضاه وغضبه، وتذوقه للجمال وانصرافه عن القبح، وأساليبه وإبداعاته فى اللهو والسخرية من مساخر الحياة.

أذكر فى حديث صحفى للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى أنه أجاب عن سؤال حول الدرس الذى أفاده واستوعبه من كتابة التاريخ وقال: «تعلمت من كتابة التاريخ أن المؤرخ يجب أن يبحث عن كيف يلهو الشعب. إن اللهو يكشف عن نفسية الشعب، فتاريخ الشعب مرتبط بطريقة لهوه، كان المؤرخون القدامى يعرفون الناس من

مقابرهم، بينما فى العصر الحديث يرى المؤرخ أن حياة الناس البعيدة عن السياسة ترسم بدقة جوهر السياسة، فالأبطال تصنعهم الحياة الجارية بكل ما فيها من ثورة ولهو. وأنا على سبيل المثال من جيل كان يلهو كثيراً ويبكى كثيراً»!

ومما لا شك فيه أن رصد الحالة الوجدانية للمجتمع المصرى إبان حكم الملكية والاستعمار والإقطاع - على سبيل المثال - تختلف اختلافاً يكاد يكون جذرياً عما لحق بالحالة الوجدانية منذ اندلاع ثورة ٢٣ يوليو، ثم اختلفت اختلافا بينا منذ حقبة الانفتاح، موصولة بالحقبة الراهنة التى شهدت مظاهر التوحش الرأسمالى والثراء الفاحش، بينما تظل الطبقات الفقيرة ومحدودة الدخل تئن تحت وطأة الغلاء والبطالة ونقص الخدمات!

ومن عجب أن يعنى المؤرخون العرب برصد الحالة الوجدانية فى دمشق عهد الأمويين، وبغداد إبان حكم العباسيين، إذ كان وصفهم الشائق للياليها ومآدبها وأنسها وشعرائها ومطربيها وظرفائها، وكذا طقوسها فى الأفراح والمسرات والليالى الملاح يجل عن الوصف والحصر، وذلك على نحو عناية فحول المؤرخين من أمثال ابن بطوطة وابن إياس والجبرتى، الذين أبدعوا أيما إبداع فى تسجيل وعرض وتحليل ذلك الزخم الوجدانى فى العديد من الأقطار العربية والإسلامية، ثم يخبو هذا الاهتمام ويتلاشى فى عصور الانحطاط الحضارى التى سادها حكم المماليك والأتراك، بل إن المؤلفات الحديثة فى درب الإبداع الوجدانى لا تكاد تعنى الآن للأسف سوى بجمع النكات والنوادر، أو تعرض فحسب لتاريخ الصحافة وأدب الفكاهة، وسير الشعراء والمطربين والظرفاء الراحلين، بينما فاتها المنهج العلمى

الموضوعى فى التقاط المظاهر والظواهر الإبداعية فى سياق التأريخ للصورة البانورامية الشاملة للحالة الوجدانية ، على غرار النهج والأسلوب الذى يطالعنا فى كتابات إدوارد وليم لين الإنجليزى الأصل فى كتابه «المصريون المحدثون» ، وكذا ما توافر علماء الحملة الفرنسية على تسجيله ودراسته وتحليله فى كتاب «وصف مصر» الذى نهض إلى ترجمته وتحقيقه الكاتب الصحفى الراحل زهير الشايب!

من هنا نحسب أن تعزيز الأهمية التاريخية والمعرفية لكتاب «خبايا القاهرة» يحتاج إلى جهد مواز على غراره للتدليل على الثابت والمتغير الحضارى الذى طرأ على أحوال وأجواء القاهرة الوجدانية خلال هذه الفترة الحيوية والمضطربة التى عاشتها مصر بعدئذ ، وتلك مهمة غيرنا من الباحثين والمؤرخين ، ولعلنا من هنا كان اعتمادنا لمعادلة «ما لا يدرك كله لا يترك جله» عبر التنوير البانورامى بالمعالم والإضافة المعرفية والتأصيل التاريخى لمحتوى كتاب خبايا القاهرة حتى يستبين القارئ فروق التوقيت الحضارى والوجدانى إن جاز هذا التعبير .

أحياء نجيب محفوظ وحاراته

والشاهد أن مدينة القاهرة تعتبر من أقدم العواصم التاريخية عالميا ، وهى قد شهدت منذ القرن التاسع عشر توسعا فى رقعتها الجغرافية ، وتباينا واضحا فى نسيجها العمرانى ، إضافة إلى ما تزخر به من كنوز الآثار الإسلامية بما يفوق غيرها من العواصم العربية أو الإسلامية ، وربما لذلك كان لها العديد من المسميات : القاهرة الفاطمية ، قاهرة المعز ، قاهرة العصور الوسطى ، القاهرة التاريخية ، القاهرة الإسلامية ،

القاهرة القديمة، لكن تظل «القاهرة الفاطمية» أكثر تلك المسميات شيوعاً، وتمتد مساحتها نحو ٣,٧ كيلو متر مربع يحدها بواباتها الأربع القديمة الباقية من ثماني بوابات نصفها كان مبنياً بالطوب النيئ واندثرت، والنصف الآخر مازال يناطح الزمن ومبنية من الحجارة، وهى باب الشعرية ـ باب الفتوح ـ باب النصر ـ باب زويلة، وتضم القاهرة ٤٠٠٠ أثر تاريخى تمثل مختلف الطرز الإسلامية بداية من عصر الولاة الطولونى مرورا بالفاطمى فالأيوبى فالمملوكى البحرى والشركسى، نهاية بالعثمانى وآثار محمد على.

والواقع أن «القاهرة الفاطمية» مسمى تاريخى ينتمى لفترة التأسيس وعصر الحكم الفاطمى لمصر، وللأسف لم يبق من آثار هذه الفترة سوى (٢٧ أثراً) يضارعها ما تخلف عن العصر المملوكى، بثرائه المعمارى التاريخى الذى يضم ٢٣٤ أثراً تاريخياً!

وقد حظيت القاهرة باعتبار ما كان لها من إشعاع ثقافى وحضارى ودور سياسى قوى، باهتمام كبير من الرحالة والباحثين والمستشرقين، وكانت البداية عبر كتابى «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» و«حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» وحتى إبداعات نجيب محفوظ الروائية التى رصدت حياة وأحوال الناس وأنماطهم الإنسانية فى أحياء القاهرة الشعبية، ومن بينها: زقاق المدق، والسكرية، وبين القصرين، بل إن أدب نجيب محفوظ ارتبط بشكل خاص بالحارة القاهرية، وجعل من مساحتها المحدودة عالماً فنياً وإنسانياً رحباً، بكل تفاصيلها ومنمنماتها، وفتواتها، وناسها الطيبين وأشرارهم وبؤسائهم، بروحها الثورية الزاخرة التى تأبى الظلم والقهر، وترنو إلى خلاصها وانعتاقها عبر تحرر الوطن من الاحتلال والاستبداد

والتخلف، ورصده فى محبة غامرة أصوات الأذان وتلاوة القرآن ونداء أحد الباعة «عشرين كحكة بقرش أبيض»، بل وحتى «تشطشة» قلى الطعمية، وعلى دربه كانت خبرات ومحبة الروائى جمال الغيطانى التى احتضنها كتابه القيم «القاهرة فى ألف سنة» وأخيراً كتابنا الصادر عن دار الشروق «مما جرى فى بر مصر» الذى أحاط بالكثير من معالم القاهرة ومتغيراتها الاجتماعية والثقافية والفنية .

وإذا كان وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى قد أولى عنايته بصيانة وترميم بعض آثار القاهرة الإسلامية بتكلفة ١٥٠ مليون جنيه بداية من شارع المعز لدين الله، خاصة وقد تأثرت إلى حد بعيد بآخر زلزال داهمها، إلا أن معظم هذه الآثار الشامخة تظل فى مسيس الحاجة إلى مليار جنيه لاستكمال عملية صيانتها وحمايتها مجدداً من التلوث وعوامل التعرية، ومن جهل الجهلاء الذين لا يتورعون عن تشويه معالمها، بالشخبطة والملصقات الانتخابية والإعلانية وكذا إحاطتها بالمحلات التجارية والباعة الجائلين والمتسولين!

ثم لماذا لا نقتبس من الغرب وسائل عنايته الفائقة بالآثار التاريخية عبر تحويلها إلى محميات حضارية، ولماذا لا نسلط على بعضها أضواء الكشافات المبهرة ليلاً . . ولماذا لا تنتشر حولها المقاهى السياحية الأنيقة وأكشاك بيع الهدايا والصور التذكارية، ولماذا لا نعتمد خطة للتنوير الإعلامى والدراسى بقيمة وأهمية تلك الآثار عبر تنمية الذوق الحضارى والوعى السياحى، ولماذا أخيراً لا نبدأ أولاً بالاهتمام بالمعالم الأثرية التى روج لها نجيب محفوظ فى رواياته وتحويلها إلى مزارات سياحية ثقافية؟

اللى بنى مصر كان فى الأصل رومى!

معروف تاريخيا على المستوى الشعبى أن «الذى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى» من قبيل التغنى بجمالها وطيب معشر أهلها ولسانهم «اللى بينقط سكر» لكن على عكس ما تردده الحكايات والأغانى أن الذى بنى مصر المحروسة التى تعنى القاهرة تحديدا كان فى الأصل روميا، وهذا القائد المغوار هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله الذى يعود أصله إلى جزيرة صقلية وعرف بـ «جوهر الصقلى» وكان من كبار قادة المعز لدين الله الفاطمى!

جدير بالذكر أن القاهرة لم تشهد الأمان والاستقرار والتقدم إلا بعد وصول محمد على باشا إلى سدة الحكم فى مصر إثر فشل الحملة الفرنسية عليها بقيادة نابليون، ولم تستمر سوى ثلاث سنوات وثلاثة شهور فقط، وبعدها كانت مأساة الفتك بالمماليك فى مذبحة القلعة الشهيرة عام ١٨١١م، واستمرت منذ الصباح وحتى الهزيع الأخير من الليل، ولم ينج منهم سوى مملوك واحد اسمه أمين بك الذى قفز بحصانه من الارتفاع الشاهق للقلعة، ثم مضى متنكراً فى الريف حتى تمكن من الهروب إلى جنوب سوريا، ويروى المؤرخون أن محمد على كان يجلس آنذاك صامتاً وسط أولاده وحاشيته فى بهو القلعة وهو يسمع صرخات المماليك، وبعدها دخل عليه طبيبه الإيطالى الخاص الذى زف إليه نبأ الخلاص من كل المماليك. . وعندئذ أمسك بدورق الماء وشرب منه كثيراً!

وكان محمد على قد شرع بعد القضاء المبرم على المماليك فى بناء الجيش القوى الذى يحقق طموحاته فى حكم مصر وضمان أمنها

القومى خارج حدودها، ومن هنا كان اختياره الجنرال سيف للقيام بهذه المهمة باعتباره كان من أهم قادة جيش نابليون وأكثرهم خبرة وكفاءة، وحين أطلعه محمد على على حقيقة نواياه وطموحاته، وعزمه على إنجاز مشروع للنهوض والتحرر من سيطرة الباب العالى فى استانبول، وافق وأبدى استعداده للتعاون، حيث تولى إنشاء الكلية الحربية بأسوان لتخريج الضباط المصريين والسودانيين وأعلن إسلامه ثم تزوج بمصرية بعد أن غير اسمه إلى سليمان باشا الفرنساوى.

لذلك كان من المتعين تكريماً لذكراه واعترافا بدوره التاريخى أن يظل تمثاله الجميل فى الميدان الذى يحمل اسمه فى وسط القاهرة، وأن نبحث عن مكان آخر يليق بمقام ودور تمثال الاقتصادى الوطنى الكبير طلعت حرب، بل إن الجور والإهمال طال قصور سليمان باشا الفرنساوى التى تحولت إلى مدارس ثم جرى عليها توسيع الكورنيش، بينما ظل قبره المشيد على الطراز الإسلامى البديع فى حى مصر القديمة تحيط به أكوام الزبالة وترتع فيه «المعيز» حتى وقت قريب!

على أن الجيش المصرى الذى تحالفت الدول الكبرى على تفكيكه نهاية حكم محمد على استعاد قوته بعد ذلك فى عهد الخديو إسماعيل، ويروى القاضى الأمريكى بيير كرابت فى كتابه «الخديو إسماعيل المفترى عليه»، كيف نجح فى بسط حكمه على ما يشبه الإمبراطورية الأفريقية التى امتدت من مصر إلى السودان إلى أريتريا وحتى الصومال ومشارف إثيوبيا، فكان المسافر عبر هذه الأقطار آمنا مطمئنا من حوادث الاعتداء، ولا تزال معالم الحضارة المصرية.. العمرانية شاهدا على هذا العصر!

قصر بنت السلطان

وإذا كان محمد على قد عنى بتنظيم شئون القاهرة وتوسيع رقعتها وتسمية أحيائها الجديدة فى إطار مشروعه النهضوى، فلا شك أن الخديو إسماعيل الذى كان يرنو لتحويل مصر إلى قطعة حضارية تحاكى أوروبا قد أسهم فى تجميل القاهرة بالميادين والشوارع الواسعة ودار الأوبرا والكتبخانة الخديوية التى انتقلت من مكانها فى باب الخلق إلى كورنيش النيل، وأصبح اسمها دار الكتب المصرية، وجرى افتتاحها عام ١٩٧١، وتحفظ ملايين النسخ من كل الكتب التى صدرت فى مصر منذ عام ١٨٨٦، ويذكر أن تكلفة هذا التغيير التى بلغت ٨٥ مليون جنيه لم تقتصر على عملية البناء والترميم والحفاظ على مبنى الكتبخانة القديم، وإنما عبر استخدام أرقى وسائل المكتبات القديمة سواء فى الحفاظ على المقتنيات الأثرية والتراثية، أو ربطها بقواعد البيانات ما بين مبنى الكورنيش ومبنى باب الخلق، وقد تعزز هذا الدور الثقافى عبر العديد من المكتبات العامة التى ترعاها الدولة، ومثالها مكتبة مبارك ومكتبة القاهرة التى شغلت قصر بنت السلطان بالزمالك، تكريما لذكرى صاحبته الأميرة سميحة كامل حفيدة الخديو إسماعيل، وكانت شاعرة وفنانة تشكيلية، وقد كتبت فى وصيتها الالتزام بتخصيص القصر بعد وفاتها للأغراض الثقافية والفنية!

ثم نتوقف قليلا لنتأمل مدى الحرص على استلهام طرز العمارة الإسلامية فى قصر بنت السلطان وفى الكتبخانة وفى المتحف الإسلامى المجاور وفى مبنى بنك مصر القديم ومسرح الأزبكية، وإلى أى حد وصل البارون امبان البلجيكى المتمصر إلى بسط نمط العمارة الإسلامية

على مبانى مدينة مصر الجديدة . . وقد كان أول مشروع جرى التخطيط له علمياً لتوسعة جغرافية القاهرة مع الاحتفاظ بالدور الوظيفى!

حريق خطير فى قصر عابدين

وحين ندلف إلى وسط القاهرة تطالعنا آيات بينات من طرز العمارة الأوربية، وبينها ما يقع فى شوارع سليمان باشا وشريف باشا وماسبيرو، ومبانى العتبة مثل عمارة تيرنج ومبنى البوستة وشرطة حريق القاهرة، وقد حرص الخديو إسماعيل على بناء قصر عابدين مقرا للإقامة الشخصية وإدارة دفة الحكم، وحتى استدعى زيادة تكلفة البناء إلى السحب من سندات الدين العام وبلغت ٢٨ ألف جنيه استرلينى عام ١٨٧٥ بينما بلغت التكلفة الكلية للقصر ٧٠٠٠٠٠ جنيه استرلينى عدا الأثاث والتحف التى تجاوزت مليونى جنيه مصرى، وكان قد جلب للإشراف على بناء قصر عابدين وجمالياته وديكوارته الداخلية وما حفلت به من تماثيل ومتاحف نخبة من المهندسين والفنيين الأوربيين المهرة، وكانت هذه المتاحف عامرة بألوان وأشكال من الأسلحة البيضاء والبنادق والمسدسات النادرة الموشاة بالفضة والذهب، وبينها سيف سليمان باشا الفرنساوى وآخر لنابليون وثالث للملك غليوم، وكذا الأوسمة والنياشين والعملات الأثرية، وقطع الكريستال التاييه والبوهيمى والليموج والجالية الثمينة الممضية بحرف «إف» وعليها التاج الملكى، وكان قد شب حريق عام ١٨٧٩م إبان حكم الخديو إسماعيل فى مناطق مختلفة من قصر عابدين، مما أدى إلى تدمير الجناح المخصص للدائرة السنية، مما دعا إلى استخدام المعاول والفئوش بل والديناميت حتى لا يصل الحريق إلى قاعة الطعام الفاخرة والأثاث والنجف والسجاجيد والفضيات الثمينة!

معروف أن وزير شئون رئاسة الجمهورية الدكتور زكريا عزمى كان قد بذل جهداً مقدرا فى الحفاظ على معمار ورونق ومحتويات قصر عابدين الأثرية التى لا تقدر بمال، وقد انتقل هذا الاهتمام إلى قصر محمد على باشا فى شبرا وقصر الأمير محمد على فى المنيل، لكن تظل هناك مشكلة ما تعوق الترويج السياحى لهذه المعالم التاريخية والأثرية على الوجه الصحيح.

وإذا كانت أسرة محمد على قد عنيت بتعمير أحياء عديدة فى القاهرة لسكنى حاشية وموظفى وعمال الخاصة السنية رعاياها، وبينها حى عابدين وحى الحلمية وحى الزمالك، وحى جاردن سيتى الذى أصبح سكنا للأرستقراطية المصرية ثم مقرا للاحتلال البريطانى ورجالاته، فقد فرضت ظروف زيادة السكان والهجرة من الريف إلى القاهرة وكذا تعدد ألوان النشاط الاجتماعية والتجارية، إلى اتساع الدائرة العمرانية للقاهرة تباعاً لتضم العتبة وباب الشعرية والمناصرة والأزبكية والفجالة وحتى منطقة باب الحديد، حيث يتجه القاهريون وزوار القاهرة إلى هذه الأحياء للتسوق!

خمارات وبوظ باب الشعرية

يذكر أن باب الشعرية اختارها المعز لدين الله مقرا له، ومتنزها جميلا للشعب، وتضم جامع الشيخ عبد الوهاب الشعرانى، وهو المكان الذى شهد طفولة وموهبة الموسيقار محمد عبد الوهاب، إلى ذلك اشتهر الحى بتجمعات وأنشطة العلافين والقزازين والقماشين والزياتين والعطارين، وكان الحى يضم العديد من الخمارات ومحلات شرب البوظة ونحو ٦٦ مقهى.

ثم نتوقف عند حى الفجالة، وكان اسمه الأصلى «درب الطبالة»، وقيل إن هذا الاسم جاء فى أعقاب انتصار الخليفة الفاطمى المستنصر فى معركة الزعامة على المنطقة مع الخليفة العباسى القائم بأمر الله فى بغداد، وعندئذ انطلقت السيدة «نسب» مطربة الخليفة الفاطمى تغنى وتطبل ابتهاجا بانتصاره، وبعدها زرع أمير الجيوش بدر الجمال العديد من البساتين الغناء بالقرب من الطبالة، حتى دخلت عصرا جديدا من الاهتمام والرعاية فى عصر الخديو إسماعيل واشتهرت عهدئذ باسم الفجالة من فرط عنايتها بزراعة الخضراوات خاصة «الفجل»، وبعدها تحولت الفجالة إلى سوق مكتبات لبيع الكتب والأدوات الدراسية، ثم لحقها أخيراً محلات لبيع الأدوات الصحية والسيراميك!

أما «باب الحديد» ملتقى قطارات السكك الحديدية من وإلى مختلف محافظات مصر، فقد كان المكان يطل على مجرى النيل إبان عصر الدولة الفاطمية، وكان جامع «أولاد عنان» المسمى الآن جامع الفتح يقع على الضفة الشرقية للنيل، وقد شهد المكان ترسانة لصناعة السفن الحربية إبان حكم المعز لدين الله الفاطمى، ومنها كان ينطلق الأسطول المصرى إلى دمياط ثم إلى البحر المتوسط!

على أن باب الحديد الذى أرخ له فيلم سينمائى شهد العديد من الأحداث والمتغيرات مع بداية القرن العشرين، عندما اختاره الاحتلال البريطانى ثكنات لجيشه، وتحول شارع عباس الأول بعد قيام ثورة يوليو إلى شارع الملكة نازلى، ثم إلى شارع الملكة فقط، ثم شارع نهضة مصر، ثم شارع رمسيس بعد نقل تمثال نهضة مصر إلى ميدان جامعة القاهرة بالجيزة، ووضع تمثال رمسيس الثانى مكانه حتى تقرر نقله إلى موقع بناء المتحف المصرى، بينما ظل شارع باب البحر الشهير على حاله شاهداً على أن النيل كان يصل هذه المنطقة!

الآثار النبوية الشريفة

ولا يكاد مصرى أو عربى أو أجنبى من الذين يترددون على القاهرة أو عاشوا فيها بعض الوقت، إلا ويعلم الكثير عن حى الحسين وأجوائه الشعبية الزاخرة ولياليه الرمضانية الشهيرة ومتاجره المتنوعة ومقاهيه التراثية، وقد ظهر هذا الحى إلى الوجود لأول مرة عام ٣٥٩ هجرية، ومازال الجدل قائما حول احتضان مسجد الحسين - رضى الله عنه - رفاته أم رأسه فى أعقاب معركة كربلاء، وربما كان المسجد مجرد تكريم لذكراه والاحتفاء بنضاله من أجل الحق وإعلاء كلمة الله!

ويجتذب مسجد الحسين عشاقه ومريديه، ويقضون أوقاتاً طيبة فى رحابه، وفى الصلاة، وزيارة الضريح والتبرك به، وإذا أسعدهم الحظ يتيسر لهم مشاهدة بعض الآثار النبوية الشريفة المحفوظة فى غرفة خاصة حصينة، واللافت للنظر أن مسجد الحسين بنى على طراز معمارى هجين بين الطراز الإسلامى والطراز القوطى، وهو يضم آيات من روائع فنون الأرابيسك والرخام الملون والنجف التركى والبوهيمى الثمين، وغالبا ما تختاره الدولة للاحتفال بالمناسبات الإسلامية!

ورغم ما شهده مسجد الحسين من العناية الفائقة وعمليات الصيانة والتجديد، وتوسعة ساحته، إلا أن الإقبال على زيارته خلق مشكلة الزحام ليل نهار، وإلى ذلك نشأت مشكلة التسول وافتراش ساحته للنوم، ولعل ما يجمعه ومسجد السيدة زينب والسيدة نفيسة ظاهرة المريدين الذين يحرصون على صلواتهم فى أوقاتها وخاصة صلاة الفجر، إضافة إلى الذين يعتقدون بأن التبرك بأولياء الله الصالحين

يجلب الحظ، ويحل المشكلات، وبلسم للتعساء والمنكوبين وإصلاح ذات البين، وحل مشكلات الزواج والعنوسة!

إلى جوار مسجد الحسين نهض جامع الأزهر عام ٩٧٢ ميلادية وهو كذلك من فضائل جوهر الصقلى الذى بنى قاهرة الفاطميين، وهو مسجد متسع على مساحة ١٢ ألف متر، وله ست مآذن جرى بناؤها فى عهود مختلفة، وبينها ما جرى بناؤه بالحجارة لأول مرة فى تاريخ بناء المآذن فى مصر، كما تنوعت أضلع تلك المآذن وكسيت بالقيشانى الملون، وكان لكل مأذنة خلوة يأوى إليها المؤذن إلى حين موعد الصلاة!

وتاريخ الأزهر ملحمة من الجهاد والفكر المستنير، ودور وطنى بطولى فى مقاومة الحكام الظالمين كالمماليك والأتراك والمستعمرين، وبينها ثورة القاهرة الأولى عام ١٧٩٨ ضد الاحتلال الفرنسى، حيث قاد الثورة شيوخ الأزهر من أمثال الشيخ سليمان الجوسقى والشيخ المحروقى، فقام الفرنسيون بضرب الأزهر بالمدافع . . ودخلوا بخيولهم إلى ساحته، وعاثوا فيه فساداً ومزقوا محتوياته من المصاحف والكتب، مما استفز الطالب الأزهرى سليمان الحلبى وغامر باغتيال القائد الفرنسى كليبر، فكان جزاءه الاغتيال البطىء شهيداً عبر وضعه على خازوق حتى أسلم الروح، مما عجل بانسحاب الجيش الفرنسى من مصر!

وقد سمى المسجد بالأزهر نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء كريمة سيدنا محمد ﷺ، إضافة إلى «ازدهار» عصره بالعلوم وتخريج العلماء والدعاة من كل ربوع الدنيا، حيث كان لكل جالية رواق خاص بطلبتها، وإذا كان الأزهر قد اختص على مدى يزيد على مائتى عام

بتدريس المذهب الشيعى ، فقد عاد كما كان معقلاً للمذهب السنى بعد زوال حكم الفاطميين لمصر !

السيرما بدل المخدرات فى الباطنية

ثم لا يفوتنا التنويه بالأحياء والمعالم الحضارية التى تحيط بمنطقة مسجد الحسين والأزهر ، وبينها حى «الحسينية» معقل الجدعنة والشهامة والفتوات وأشهرهم الحاج عرابى ، ولازال هذا الحى متخصصا فى صناعة المشغولات النحاسية ، وكان إلى عهد قريب يضم الحرفيين المهرة الذين كانوا يعملون فى «دار الكسوة» الواقعة فى شارع أمير الجيوش بأشغال كسوة الكعبة المشرفة . . قبل أن تجتذبهم السعودية للقيام بنفس العمل !

وأما خان الخليلى فلا يزال كعبة للسائحين ، ويضم زهاء ٥٠٠ ورشة لصناعة المشغولات الذهبية والفضية والنحاسية والجلدية ، فضلاً عن صناعة السجاد اليدوى ، والنسيج الشرقى ، ومن عجيب أن تشاهد بعض «بازارات» خان الخليلى تعرض ملابس الرقص الشرقى بأنواعها الحشمة والفاضحة وتنال رضا واقتناء السائحات !

أما حى الباطنية فيقع خلف مسجد الحسين ويتوسطه ميدانان ، وخلال فترات الانفلات الأمنى إبان السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضى ، كان الحى وكراً علانياً لبيع الحشيش والأفيون ، وكان أشهر تاجر مخدرات آنذاك يدعى مصطفى مرزوق ، وقد رحل نحو ٩٠٪ من هؤلاء التجار بينما ١٠٪ نزلاء السجون ، والمدهش أن تتحول الباطنية الآن لأهم وأكبر مشغل لصناعة لوحات ومفروشات «السيرما» الثمينة

التى كانت تستورد من تركيا، وتبذل مؤسسة أغاخان جهودا تقدر فى تنمية مهارات السكان وخدمتهم اجتماعياً وثقافياً، فيما قدمت نحو مليون جنيه قروضاً لتحويل الصناعات الحرفية!

والمشكلة أن الزحف العمرانى على حى الباطنية، حجب النظر والاهتمام عن العديد من معالمه الأثرية والتاريخية، وبينها مجموعة من الأسبلة الإسلامية التاريخية، مثل سبيل الخربوطلى وسيدى عقبة وعبدالرحمن كتخدا وزين العابدين، فضلاً عن المبانى القديمة التراثية والمساجد ذات المآذن العريقة وبينها مسجد سيدى يحيى بن عقبة ومسجد النصف مأذنة وهى نصف مأذنة بالفعل!

عبد الناصر وقصة بناء الكاتدرائية

ليست آثار القاهرة التاريخية وقفا على التراث الإسلامى، إذ إن التراث القبطى المسيحى يحتل جانباً مهماً بالتوازى مع مختلف معالم العاصمة الأثرية، وخاصة أن المسيحية سابقة للإسلام فى مصر القديمة، ولا تزال الكنيسة المعلقة وكنيسة مارى جرجس بحى مصر القديمة شاهدين تاريخيين ينبضان بالإيمان الذى جبل عليه المصريون منذ الأزل، وليس صدفة أن يختار الله سبحانه مصر دون غيرها لاستضافة العائلة المقدسة، ورحلتها فى ربوعها وأن تنتعش حركة بناء الكنائس التى شملت كل أحياء القاهرة الآن دون استثناء، وكذا صدور العديد من الصحف القبطية!

يذكر أن الرئيس جمال عبدالناصر عندما نما إلى علمه تعثر مشروع إعادة بناء البطريركية الأرثوذكسية، بادر إلى إصدار قرار بوفاء الدولة

بسداد ما تبقى من تكلفة البناء والتأسيس، فيما شملت عناية الدولة بالآثار، المتحف القبطي وهو آية رفيعة في طرازه المعماري، كما أن مقتنياته المقدسة ثرية ونادرة!

وإذا كانت مصر قد ابتليت بظاهرة التطرف وما نجم عنها من الفتن الطائفية الصغيرة بين الحين والآخر، إلا أنها سرعان ما تزول، وذلك يرجع إلى الطبيعة المسالمة للشعب المصري، واليقين بأن المسلم الحق هو من يؤمن بكل الكتب المنزلة والرسالات السماوية والأنبياء جميعهم، وتشهد ليلة الأربعاء من كل أسبوع موعظة الأنبا شنودة، ودائماً ما تتسع البطريركية للزوار المسلمين.

بيت الأمـــة

ولأن مصر لا تنسى أبناءها البررة، وزعماءها الخالدين، من هنا كان الاهتمام بإعادة الاعتبار إلى «بيت الأمة» تقديراً لنضال سعد زغلول الوطني الذي استحق لقب زعيم الأمة، وكذا قرينته صفية هانم زغلول «أم المصريين»، حيث تحول إلى متحف ومزار ثقافي سياحي.

في بيت الأمة تطالعنا قطع أثاثه الإسلامي المتحفي الأنيق ومكتبته ومقتنياته والعديد من الأوسمة والنياشين التي تشهد بعظمته، وذلك التمثال الذي يخلده ويتصدر واجهة المتحف، وربما تجدر الإشارة بالسهولة المعرفية التي عني بها القائمون على المتحف للتعريف بسعد زغلول الذي ولد في إبيانة بمحافظة الغربية عام ١٨٥٩، وبدأ تعليمه في كتاب القرية ثم بالجامع الأزهر.. وتتلمذ على يد الشيخ جمال الدين الأفغاني، وعمل محرراً في الوقائع المصرية، وشارك في الثورة العرابية

عام ١٨٨٢ ، ونال شهادة المحاماة من باريس واكتسب شهرة واسعة وثروة عريضة من عمله بالمحاماة، مما أهله للتردد على صالون الأميرة نازلى فاضل، وأن يصاهر مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء.

وقد اكتسب سعد زغلول لقب زعيم الأمة بلا منازع، إثر نفيه إلى الخارج مرتين، الأولى عام ١٩٢١ إلى جزر سيشل والثانية إلى جبل طارق لمدة عامين، فكان اندلاع ثورة ١٩١٩ تحت قيادته، ورأس أول مجلس وزراء فى ظل دستور ١٩٢٣ ، ورغم أنه لم ينجب من السيدة صفية زغلول إلا أنه لم يثنّ عليها، إذ كان يكن لها احتراماً خاصاً لحكمتها وحسن تصرفها، وقد اكتسبت لقب أم المصريين حينما استقبلت وفداً نسائياً من طنطا وقدمن لها هدية عبارة عن لوحة منسوجة تحمل عبارة «عائشة أم المؤمنين وصفية أم المصريين»، وحين توفى سعد عام ١٩٢٧ أبقت على بيت الأمة مقراً لاجتماعات زعماء حزب الوفد وزعامات الحركة الوطنية.

عربة إفطار الفول الصباحية

ولاشك أن القاهرة التى تضاعف سكانها تباعاً، وتنوعت أنشطتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فرضت بالضرورة نمطاً من التوسع الأفقى والرأسى فى عمرانها، بشكل سريع، ومن ذلك ظاهرة العمارات الشاهقة المتعددة الطوابق، وكذا المساكن الشعبية وغيرها من مساكن محدودى الدخل التى كانت حكومات ثورة يوليو تتكفل ببنائها بالتوازى مع خلق فرص العمل للمهنيين والحرفيين، وعلينا أن نلاحظ مدى الزحام الشديد للعابرين والسيارات على مدى ساعات الليل والنهار خاصة فى «وسط البلد» ومداخل القاهرة، ومحاورها وكباريها

الجديدة، بل إن الزحام جار على أرصفة الشوارع المخصصة للمشاة، واحتلها الباعة الجائلون وكذا باعة الصحف والمجلات بعدما لم يعد هناك متسع للأكشاك المرخصة من بلدية العاصمة لهذا الغرض!

وبينما كان الشحاذون متواضعين يرضون بالقليل من الخبز أو النقود، تفاقمت الظاهرة إلى الحد الذى أصبحت الشحاذة مهنة إضافية لكناسى الشوارع وغيرهم من الذين يدعون مهنة منادى السيارات وبعض عساكر المرور الذين لا يعتذرون عن قبول الإكراميات، ومن عجب أن يتنافس الشحاذون على احتلال المواقع الاستراتيجية أمام الفنادق والوزارات والمستشفيات والعمارات التى يشغلها الأجانب، ويتنازلون عنها لغيرهم مقابل مبلغ من المال «خلو رجل»، بل إن بعض الشحاذين راح يدير شبكات من أعوان الشحاذين عبر الموبايل!

ومن المتغيرات الاجتماعية الطارئة على مجتمع القاهرة تراجع عمليات نشل النقود والساعات والحلى بطريقة ناعمة، وتمادى عملية خطف حقائب السيدات والموبايل وكذا النقود أمام مخارج البنوك، زد على ذلك حوادث السرقة بالإكراه مع تفاقم حدة الفقر والبطالة!

وبينما كان القاهريون فى الماضى يعتبرون تناول الطعام فى الشارع عيباً، انتشرت الآن عربات بيع الكشرى وغيرها من عربات تقديم وجبة الفول المدمس والبصل، وباتت بديلاً عن تناول الإفطار فى البيت قبل التوجه إلى العمل، ومع انتشار السلع الصينية الرخيصة، راح الباعة يعرضون منها الملابس والإليكترونيات وألعاب الأطفال على فرشة واسعة من القماش، فإذا تلقوا إنذارا من الناضورجى بقدوم «عربية» البلدية أسرعوا إلى طى الفرشة بما عليها واختفوا إلى حين، ثم العودة إلى نفس المكان مع الاطمئنان إلى ذهاب «عربة» البلدية.

حكاية الملك فاروق والفنانة كاميليا

كانت عمارة الإيموبيليا التى تقع فى شارع شريف فريدة زمانها فى الارتفاع والفخامة وشهرة السكان، وإذا كانت عمارة يعقوبيان قد نالت حظها من المعالجة الفنية الدرامية عبر الفيلم السينمائى الذى كتبه الروائى الدكتور علاء الأسوانى، فلاشك أن الأيموبيليا لاتزال فى مسيس الحاجة لأن تحظى بنفس الاهتمام، ولم لا وقد بناها الاقتصادى الوطنى الكبير أحمد عبود الذى كانت ثروته تربو على ٣٠ مليون جنيه، وأصيب بالشلل عندما لحقتهاومشروعاته الصناعية الضخمة قرارات التأميم.

تضم الإيموبيليا ٣٠٠ شقة، ولها ثلاثة مداخل عمومية للسكان تسمى «بريمو» وثلاثة أخرى للخدم والعمال تدعى «سكوندو» وترتفع إلى عشرة طوابق، وقد كانت سكنا لمشاهير الفنانين والمبدعين، بينهم نجيب الريحانى وأنور وجدى ومحمد عبدالوهاب ومحمد فوزى وماجدة الصباحى وأسمهان وعبدالعزيز محمود وفكرى أباظة وتوفيق الحكيم، ولايزال بعض البوابين الذين عاشوا أمجاد الإيموبيليا شهودا على الكثير من الوقائع المثيرة والذكريات التى لا تنسى، وبينها تسلل الملك فاروق أحياناً فى جنح الليل والصعود إلى شقة الفنانة كاميليا، ثم مغادرتها قبل أول ضوء للفجر.

على أن شهرة الإيموبيليا تراجعت أمام ظاهرة العمارات الحديثة التى تحاكى ناطحات السحاب، ويسكنها فى الغالب رجال الأعمال الجدد والفنانون وأثرياء الخليج، وإذا كانت عمارة «بلمونت» فى جاردن سيتى البداية لهذه الظاهرة، تظل عمارة «الفورسيزون» فى المقدمة حتى الآن، حيث يتراوح ثمن الشقة الواحدة ما بين خمسة ملايين جنيه

وعشرة ملايين وربما أكثر والله أعلم، بينما السؤال حتى الآن بلا جواب حول وسائل إطفاء الحرائق إذا شبت فى الأدوار العليا، رغم محدودية إمكانات شرطة الإطفاء و. . ربنا يستر!

أيها الراقدون تحت التراب

من الطبيعى بحكم مرور الزمن ومتغيرات العصر، أن تختلف أوضاع فنون التمثيل والطرب فى القاهرة عما كانت عليه فى كتاب «خبايا القاهرة»، ويكفى إدراك كم الأفلام السينمائية المصرية التى يجرى إنتاجها سنوياً بالعشرات، وكم المسلسلات الدرامية التى تبثها الفضائيات المصرية والعربية أيضاً بالعشرات، وكذا كم الفرق المسرحية العامة وغيرها من فرق القطاع الخاص !

وبينما كانت الأفلام والمسرحيات تتمحور موضوعاتها فى الغالب على المآسى والميلودراما على حساب الموضوعات التاريخية والكوميدية والغنائية أو الرومانسية، راحت الكوميديا ـ تحديداً ـ تحتل مكان الصدارة وإقبال الجماهير فى الإنتاج السينمائى والمسرحى بشكل خاص فيما يشبه الهروب من الواقع الاجتماعى ومشاكله ومآسيه.

كان فتى الشاشة أو المسرح «الجان برميير» ـ غالباً ـ شاباً وسيماً ـ أنور وجدى وعمر الشريف ورشدى أباظة الملقب بدونجوان السينما المصرية، ربما لكثرة زيجاته ومغامراته العاطفية، ثم إذا بجمهور المشاهدين يرحب بعادل إمام ومحمد هنيدى ومحمد سعد، ثم إذا بجيل جديد يقتحم ساحة الأعمال الدرامية بدون مقدمات ولا إرهاصات، حتى لا تكاد تعرف أسماء الممثلين أو الممثلات إلا بعد تكرار ظهورهم وظهورهن فى أعمال فنية عديدة!

على غرار الأسلوب السينمائى «فلاش باك»، من المتعين الإطلال على ماضى الكوميديا ونجومها حتى منتصف القرن العشرين، حتى نتعرف على ما لحقها من المتغيرات بعد نجيب الريحانى «كشكش بك» أو على الكسار «بربرى مصر الوحيد»، ثم إسماعيل ياسين الذى قام ببطولة زهاء ٣٠٠ فيلم سينمائى بعضها باسمه شخصياً، غير أعماله المسرحية، وقد جاء القاهرة مهاجراً من مدينة السويس بعد وفاة والدته التى كانت ترعاه وإدمان والده شم الكوكايين، حيث جرب حظه فى البداية كمطرب بعد أن نجح فى الغناء من قبل على أنغام «السمسمية»، لكنه عندما وقف يغنى فى إحدى حفلات الزواج بالقاهرة إذا به من فرط إعجابه بأغانى محمد عبدالوهاب وتقليده، يختار أغنية غير مناسبة ناله بعدها علقة ساخنة، وكانت أغنية «أيها الراقدون تحت التراب»!

بعدها راح يتردد على شارع الأرتيستات.. وهو اسم شارع محمد على عهدئذ، وهداه تفكيره أن يتحول من مطرب إلى منولوجست، فكان طريقه سالكاً إلى مصاحبة فرق العوالم والمشاركة فى إحياء الأفراح، ثم التحق بعدها بالعمل فى الكازينوهات حتى التقطته بديعة مصابنى بصفته مهرجا وليس منولوجستا، لكنه فرض موهبته على الجمهور الذى كان يصفق له طويلاً أكثر من بديعة مصابنى فاستغنت عنه!

على أن إسماعيل ياسين عندما اكتسب الثقة بنفسه راح يطور أداءه بعدما التحق بفرقة أمين عطا الله وحقق نجاحات مبهرة خلال عروض الفرقة المسرحية فى سوريا ولبنان، ثم عاد ليلتحق بفرقة منيرة المهدية بمرتب شهرى ١٥ جنيها، واستطاع أن يحقق لنفسه شهرة واسعة مما حدا بكبار الملحنين لتلحين منلوجاته وبينهم عبدالوهاب وفريد

الأطرش ومحمد فوزى ومحمود الشريف، بل وأصبح ركناً أساسياً فى العديد من الأفلام كممثل كوميدى ومنولوجست وأشهر «سنيد» فى السينما المصرية.

على أن عشق إسماعيل للمسرح فاق كل ألوان الفنون فى حياته، حيث استأجر سينما ميامى بشارع سليمان باشا وحولها إلى مسرح، فى نوفمبر ١٩٥٤، وكانت مسرحية الافتتاح بعنوان «حبيبى كوكو»، وبعدها قدم على مدى ١٥ عاماً إحدى وخمسين مسرحية وهو رقم لم يطاوله غيره، لكن لأنه كان يفتقر إلى خبرة الإدارة والإعلان والتسويق.. من هنا تبددت ثروته الطائلة تباعاً بل وأصبح كما يقولون «على الحديدة»، بينما نجح عادل إمام فى إدارة شئونه الفنية كرجل أعمال خبير، وقد أكد ذاته الفنية عن جدارة سواء عبر صحبته للمثقفين أو الارتباط بقضايا الشعب وهمومه، ومن ذلك موقفه المعارض من التطرف والإرهاب، ولعله يفسر استمرار عرض مسرحيته الأخيرة «بودى جارد» تسع سنوات متصلة حتى الآن!

أغانى الكلينكس

عرفت القاهرة الطرب الشرقى وأساطينه منذ زمن بعيد، وكانت ذواقة لأغانيه وأدواره وطقاطيقه، لكن هذا الاهتمام تراجع فى زمن الانفتاح بشكل مؤسف بل وخطير، فلم تعد آذان ولا أذواق الأجيال الجديدة تستسيغ الموسيقى ولا الغناء الشرقى، مما ينعكس سلباً بالضرورة على تراثنا الغنائى الشرقى وعلى وجدان الشخصية المصرية وانتمائها الوطنى والقومى!

هكذا فى زمان الانفتاح السداح مداح تشابهت الإيقاعات الغربية

الراقصة فى معظم الأغنيات الشبابية ، واستحقت عن جدارة تشبيه الموسيقار الراحل الشيخ سيد مكاوى لها بالمناديل «الكلينكس» ، فلا يكاد المرء يستمع لها فى المرة الأولى حتى يملّها وينساها ، حتى إن البعض من هؤلاء المطربين الشبان يقع فى الحرج عندما يطالبه الجمهور بالاستماع لإحدى أغنياته القديمة ، بينما تظل أغنيات الجيل القديم من المطربين أمثال أم كلثوم وعبدالوهاب وليلى مراد وحتى عبدالحليم حافظ باقية وتزداد مع الأيام حلاوة!

وبينما كنا نحسن الاستماع إلى المطرب ، ثم نصفق ونبدى إعجابنا بعد أن ينتهى من غناء الكوبيليه ، بات الصخب والصفير والتصفيق يصاحب غناء المطرب الشاب مما يعنى الافتقار إلى حاسة التذوق سواء للصوت أو الكلمات أو اللحن .

ومن عجب أن تسمع عن تكلفة الألبوم الغنائى الواحد لأى من المشاهير المطربين الشبان ، وقد تجاوزت المليون جنيه وأكثر ، وأن الضرائب تطالب أحدهم بمليون جنيه عن دخله فى عام واحد ، والأمر كذلك عندما تدهش لتجاوز إنتاج أحد الأفلام السينمائية مائة مليون جنيه ، بينما كان إنتاج الفيلم فى الستينيات يبدأ بخمسين ألف جنيه يدفعها الموزع مقدماً بنسبة ٥٠٪ .

وقد تزامن مع هذا الزواج الفنى تداعيات غير محسوبة ، بينها زحف الممثلين والمطربين اللبنانيين والتونسيين والسوريين والمغاربة إلى ساحة التمثيل والغناء فى القاهرة ، بل ومنافسة لهجاتهم للهجة المصرية ، ولاشك أن تعدد القنوات والمحطات الفضائية غير المصرية قد أسهم فى تأجيج هذا التنافس بشكل إيجابى ، على نحو النجاح الذى تحقق للممثل السورى جمال سليمان الذى تفوق فى أداء الأدوار الصعيدية

الصعبة، وكذا قرينه السورى الفنان تيم الحسن الذى مثل دور الملك فاروق باقتدار، والممثلة التونسية هند صبرى، والمطربات اللبنانيات نانسى عجرم وهيفاء وهبى وإليسا . . لكن الأكثر مثاراً للدهشة أن تبيع الروسيات الماء فى حارة السقايين، عبر احتراف وممارسة الرقص الشرقى فى البلد التى أنجبت تحية كاريوكا وسامية جمال ونبوية مصطفى!

والحديث يجرنا إلى مظاهر أخرى وافدة مع الانفتاح، إذ نادراً ما تقام حفلات الأفراح كما كانت فى البيوت، وأصبح مكانها النوادى والساحات الشعبية وحتى الفنادق الخمسة نجوم و . . حدث ولا حرج عن تكلفة أفراح الأثرياء الجدد ورجال الأعمال، وبعضها يتكلف الملايين ويجلب لها بعض أنواع الطعام من باريس، وربما مخرج متخصص للحفلات، حتى أكثر هذه الحفلات تواضعاً فى أحياء القاهرة الشعبية . . غالباً ما يتصدرها جهاز «دى ـ جى» للرقص الشرقى والغربى على ما يبثه من ألوان الموسيقى!

ثم لا يفوتنا رصد ظاهرة صالات الديسكو، وانتشار الكمبيوتر واستخدام الإنترنت والبريد الإليكترونى، وغرف الدردشة «الشات» وعقد الصداقات عبرها بل وقصص الحب والزواج، وربما كان الاستخدام الضار للإنترنت عبر ظاهرة إثارة الشائعات المغرضة!

مقهى الصبايا للمحجبات فقط

أما عالم المقاهى فلم يتغير كثيراً عنه فى كتاب «خبايا القاهرة»، لا أعنى أسماء وأمكنة المقاهى الجديدة، وإنما أجواءها ووظائفها، ولاشك أن مشكلة ازدحام المساكن بالسكان وجدت فى المقاهى الحل عبر

استقبال الضيوف والأصدقاء، فكان الانتشار الواسع للمقاهى، وزيادة المدخنين للشيشة بالتالى، وبينهم الجنس اللطيف، كذلك كان للبطالة سبب آخر وراء إيواء المقاهى للمتعطلين!

وإذا كانت الحياة الثقافية محكومة بتوازنات سياسية أو مصالح شخصية أو ما يسمى «الشللية»، فلاشك أن المقاهى الثقافية باتت متنفساً للمواهب الأدبية والأدباء والفنانين، ولعل أبرزها فيما بعد المراحل التى رصدها كتاب «خبايا القاهرة» قهوة محمد عبدالله بميدان الجيزة وقهوة «أنديانا» بميدان الدقى وكان يرعاها الناقد الكبير أنور المعداوى مع الفنان الأديب زكريا الحجاوى، ثم ندوة نجيب محفوظ التى كان يعقدها أسبوعياً فى كازينو أوبرا ثم كازينو قصر النيل ثم مقهى ريش، وأخيراً باخرة نيلية يملكها رجل الأعمال إبراهيم كامل، وقد اختار لها اسم إحدى أغنيات أم كلثوم، وأم كلثوم بات اسم مقهى شهير فى وسط القاهرة يذيع تسجيلاتها المعروفة والنادرة، ثم لا ننسى قهوة زهرة البستان التى شهدت ولادة العديد من المواهب الأدبية والفنية.

على أن بعض المثقفين قد اختاروا أن يعقدوا ندواتهم الأدبية فى البيوت والمكتبات العامة، بعد ارتفاع أسعار المشاريب فى المقاهى وتجنب شرور البصاصين، ومنها ندوة الدكتور تليمة فى منزله بالدقى، وندوة الشاعر الناقد شعبان يوسف بالزيتون، وندوة الكاتب الأديب محمد جبريل، وندوة الفجر التى يديرها الدكتور يسرى العزب، وندوة جماعة الجيل الجديد التى يديرها الشاعر حزين عمر، وندوة قنديل أم هاشم ويديرها الأديب محمد جابر، وكذا صالون الدكتور أحمد تيمور، إلى ذلك هناك ندوات أدبية شبه يومية منها منتدى «ورقة

وقلم» وجماعة «آدم» بمكتبة طلعت حرب، وجماعة «مغامير» و«إبداع» و«دعاء الشرق» و«الجلسة الثقافية» و«رؤى».

بينما تجتذب مقاهى القاهرة الثقافية الكثير من الوافدين على القاهرة واللاجئين العرب من هواة الأدب، وكان أبرزهم حتى نهاية سبعينيات القرن الماضى الشاعر العراقى عبدالوهاب البياتى، والشاعر الفلسطينى معين بسيسو، والشاعر السودانى محمد الفيتورى، كانت كذلك مقصداً دائماً للصحفيين والباحثين الإسرائيليين منذ توقيع مصر اتفاقية «كامب ديفيد»، وبينهم ديفيد كيمحى الملقب بالرجل ذى الألف وجه، عبر مغامراته الدبلوماسية والمخابراتية منذ أصيب فى قدمه إثر مشاركته فى حرب ١٩٤٨، وبينى تسفير رئيس تحرير الملحق الثقافى بصحيفة «هاآرتس»، ودائماً كانت فنانة تشكيلية تدعى شيماء مرافقة لهم ودليلا!

وإذا كانت مقاهى الإنترنت تشى بمواكبة العصر ووسائل الاتصال الحديثة، نجد أن تقليعة الفنانة المحجبة حنان ترك الخاصة «بمقهى الصبايا» أصبحت من أبرز موضوعات النقاش عبر الإنترنت، فهو أول مكان مصرى يمنع دخول المسيحيين ومثار للتفرقة بين جناحى الأمة المصرية، وأن قصر دخول المقهى على المحجبات نوع من «البيزنيس» وسيادة فكر القطيع، فى إشارة إلى ارتفاع أسعار ملابس المحجبات، بينما انبرت مدونة «إيجى فيلم» للدفاع عن موقفها مشيرة إلى أنها اتجهت إلى المشاريع الدينية بعدما أوشكت على الابتعاد عن ممارسة التمثيل!

ما قل ودل

ثم نعود من حيث بدأنا عبر معادلة «مالا يدرك كله لا يترك كله» للإحاطة سريعاً بأهم الظواهر والمتغيرات التى شهدتها القاهرة بعد صدور كتاب خبايا القاهرة: مع الوضع فى الاعتبار الحكمة التى تفرضها ظروف ومتغيرات العصر «ما قل ودل».

وساطة الرئيس جمال عبد الناصر فى «لقاء السحاب» بين الموسيقار محمد عبد الوهاب وكوكب الشرق السيدة أم كلثوم عبر أغنية «إنت عمرى»!

الحزن العام على رحيل العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ، والوفاة الغامضة للسندريللا سعاد حسنى، واعتزال المطربة الكبيرة نجاة الصغيرة وهى فى قمة النضج والتألق والشهرة، والفجيعة الكبرى فى الاعتداء البشع على الروائى العظيم نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل، وكذا مرض النجم أحمد زكى، وقيامه بأداء دور عبد الحليم حافظ سينمائيا رغم معاناته من المرض العضال إيذاناً برحيله!

ابتلاء مصر بالإرهاب وبالفتنة الطائفية وبالتفسير والفتاوى الدينية المستهجنة التى تجاوزت إجماع العلماء المستنيرين، وارتدت بالمسلمين

إلى عصور الجهالة، وبينها فتوى إرضاع الكبير، وأخرى حول شرب الصحابة بول الرسول عليه السلام، وعقاب الصحفى المشاغب خمسين جلدة!

اختفاء مخدر الحشيش نسبيا وانتشار البانجو الذى تجود زراعته فى حدائق البيوت، وفى البلكونات، وخطورته البالغة على الأعصاب وتدمير خلايا المخ، ويشهد بذلك تزايد المترددين على المصحات من مدمنى البانجو والهيروين!

انتشار أغانى «الميكروباص» التى تشى بانحطاط الذوق والأخلاق، وفرض سماعها على الركاب، وكذا مواعظ عذاب القبر!

الاختفاء المريبَ من قلب القاهرة لوزير خارجية ليبيا الأسبق منصور الكخيا، ثم اختفاء الكاتب الصحفى رضا هلال!

عزوف الجيل الجديد عن طعام البيوت المصرى المسبك، وانحيازهم للوجبات الأمريكية السريعة «تيك أواى».

تلاشى ظهور المقرئين العظام أمثال الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وهو ما يفسر انشغال الجمهور فى سرادقات العزاء بالأحاديث الجانبية عن سماع المقرئين عديمى الموهبة الذين يفتقرون للصوت الجميل، ويجهلون أصول تلاوة القرآن الكريم!

تتابع حديث الناس فى القاهرة عن فضائح عصر الانفتاح.. وآخرها هروب ممدوح إسماعيل صاحب العبّارة «السلام» التى راح ضحيتها أكثر من ألف مصرى غرقاً، وكذا الدكتورة هالة سرحان بعد فضيحة بنات الليل المزيفات فى برنامج «هالة شو»!

عودة الطربوش على رءوس الممثلين فى المسلسلات التاريخية وعلى رءوس العاملين فى بعض الفنادق والمطاعم السياحية.

ظواهر الاعتصامات والإضرابات المطلبية والمظاهرات السياسية، وانتشار رجال الأمن المركزى وعرباتهم المصفحة فى شوارع وسط البلد تحديداً بدعوى الحفاظ على الأمن العام، وبينها انتفاضة القضاة ومظاهرات حركة كفاية، وآخرها اعتصار موظفى الضرائب العقارية الذين تزعمهم المناضل المعروف كمال أبو عيطة.

نجاح جماعة الإخوان المسلمين فى ٨٣ دائرة خلال آخر انتخابات نيابية رغم حجب نشاطهم عن الشرعية!

احتفال النادى الأهلى بذكرى مرور مائة عام على إنشائه، فيما بلغ محمد أبو تريكة قلب دفاع فريقه لكرة القدم شهرة تضاهى سلفه محمود مختار التتش منذ حوالى أربعين عاماً وكانت أول مبارياته مع فريق النادى الأهلى أمام الطيران الإنجليزى وفاز فيها الأهلى ٢/ ١ !

لم يعد الناس ولا أحد من الكتاب والسياسيين أو الباحثين يذكر اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية إثر قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢!

موجة من اعتزال الفن وارتداء الحجاب بين نجوم السينما والمسرح والطرب فى مقدمتهم شادية التى شيدت فى قرية مجاورة للأهرامات مسجداً على نفقتها الخاصة ودارا لمحو الأمية ومستوصفا خيريا ودارا لرعاية الأيتام ومركزا لعلاج الأورام!

٣٦ عاما مضت على اعتلاء البابا شنودة كرسى مار مرقص الرسول، وخلالها حاز على لقب «بابا العرب» لمواقفه المناوئة للاحتلال

الإسرائيلى، وتعميم رفض زيارة فلسطين على المسيحيين قبل أن تتحرر ويدخلون مع المسلمين إلى القدس!

لأول مرة تسمح الرقابة بالنقد الصريح لممارسات بعض رجال الشرطة المجافية للإنسانية والقانون فى فيلم «هى فوضى».. ولأول مرة يسمح يوسف شاهين بأن يشاركه خالد يوسف أحد تلاميذه فى إخراج الفيلم.

احتفلت صحافة القاهرة فى ١٩ مايو عام ١٩٢٥ بشفاء بطل الدراجات الهوائية المصرى سالم أفندى حسين عبد الله، واحتفلت القاهرة عن بكرة أبيها فى عام ١٩٢٨ بنجاح إسحاق حلمى تمساح النيل فى عبور المانش، وأقيمت على شرفه العديد من حفلات التكريم بعد عودته من إنجلترا!

كانت للكلب البوليسى «هول» شهرة واسعة ودور مهم فى التعرف على المتهمين فى حوادث السرقات والاغتيالات عبر حاسة الشم التى كانت حاسمة فى إثبات التهم بنسبة ٧٠٪، وكان آخرها الكشف عن حادث سرقة بالإكراه يوم ١٨ فبراير عام ١٩٣٩، وبوفاة الكلب هول احتل الكلب «نصر» مكانه عام ١٩٣٩ إلا أنه لم ينجح على ما يبدو فى إثبات جدارته بالمنصب.. حيث توقف بعدها الاستعانة بالكلاب البوليسية فى الكشف عن المتهمين!

كان المثل القديم يقول: «اللى معاه قرش محيره، يشترى حمام ويطيره» و.. حتى اختفت مؤخراً من فوق أسطح البيوت وعمارات القاهرة عشش أو «غيات» الحمام الزاجل تماما وبينها أنواع نادرة يصل الفرد الواحد إلى مائة جنيه وأكثر وبينها البلق والصوافة والقزاز إثر انتشار مرض أنفلونزا الطيور، رغم أن الخبراء أكدوا أن الحمام محصن

ذاتياً ضد هذا المرض وفى مقدمتهم الدكتور فتحى سعد محافظ الجيزة، وهكذا ضاعت على مصر ثروة داجنة نادرة لا تعوض!

فرحة ما تمت حين أكد الرئيس حسنى مبارك قراره بالعدول عن مشروع بناء قاهرة جديدة لمواجهة كوارث ازدحام العاصمة بالسكان والسيارات ونهاية العمر الافتراضى للبنية التحتية، بدعوى أن تلبية احتياجات الفقراء ودعم محدودى الدخل الأولى والأكثر إلحاحا فى الوقت الراهن!

انتهت الإضافة . . فإلى الكتاب الأصلى «خبايا القاهرة».

خبــايا القاهــرة

أحمد محفوظ

مقـــدمـة

يسعدنى أن أتقدم بهذا القسم من حياة القاهرة الطويلة . فقد جلوت فيه ليالى القاهرة، وملاهيها، ونواديها، ومقاهيها، وفنادقها، وحياة التمثيل، وحياة الغناء، والحياة الاجتماعية، والعادات، والمعاش، والأعراس، والأعياد، والظرفاء، والشحاذين، والثورات، والحياة النيابية، قديمًا وحديثًا.

وقد قسمت هذه الحياة إلى ثلاثة أقسام : هذا القسم الذى بين يديك، واسمه خبايا القاهرة وسيتلوه القسم الثانى، وفيه مشاهد القاهرة من أماكن ومتاحف وشوارع وغير ذلك، وقد أسميته (جولة فى القاهرة).

ثم يتلوه القسم الثالث، وفيه نشأة القاهرة، وخلفاؤها، وسلاطينها وولاتها، وحكامها وأعمالهم، فى كل عصورها، ودعوته (حكام القاهرة)، وقد توخيت فى هذه الأقسام أن أنفذ إلى الأعماق غير عابئ بشىء إلا بالحقيقة التاريخية.

وقد جهدت أن أبرز كل هذا فى أسلوب مستساغ شيق لا يمل من النظر فيه قارئ، كما أنى أرجأت ذكر المراجع التى تبلغ العشرات،

حتى القسم الأخير، ولكنى لا أستطيع أن أمسك هنا عن ذكر السيد الكريم محمد نديم المدير السابق للبوليس، والذى خدم فى بوليس القاهرة خمسين عامًا، ولا عن ذكر الأستاذ داود خاشادور المحامى، ولا عن ذكر الأميرالاى سليمان عزت الطبيب، ولا عن ذكر الصديق الكريم فايق خيرى الوجيه، فكل هؤلاء عاونونى مشكورين.

ولست أدعى بعد ذلك أنى ألممت بحياة القاهرة كلها، فهذا غير مستطاع لكاتب واحد، ومن يزحم البحر يغرق.

أحمد محفوظ

ليالى القاهرة وملاهيها

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن القاهرة أحفل بلد فى الشرق الأوسط بالطرب والملاهى والترويح عن النفس، فقاهرة الفاطميين كانت تلهو وتطرب، وقاهرة الأيوبيين كانت تلهو وتطرب، وقاهرة المماليك كانت تلهو وتطرب حتى قاهرة العثمانيين كانت تلهو وتطرب، فإن طبائع أهل هذا البلد غالب عليها حب التنفيس عن القلب والترويح عن النفس، فأهله ظرفاء فلاسفة ضاحكون دائمًا، وقد حدث أن نابليون حين دخل القاهرة أبصر فى طريقه مائة عرس تذخر بالطبول والمزامير، فعجب القائد الفرنسى وقال: عجبت لهذا البلد الذى لا يعرف الحزن أبدًا.

فأهل القاهرة مرحون، يعجبهم السهر والسَّماع واللهو والاختلاف إلى دور اللهو، والمتنزهات فى كل العصور، ويحبّون الشراب والسماع والاحتفاء بزفافهم وختان صبيانهم، وتوديع بعضهم بعضا عند ذهابهم إلى حجهم، وعند عودتهم منه، كما يحب المسلمون منهم تعظيم نبيّهم وصلحائهم فى ليال صاخبة آونة، وقورة آونة أخرى. تضطرب بالطبل وبالزمر، وتسكن بالقرآن وتلاوته.

كانت حانات القاهرة فى أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك: تقع فى أطرافها على النيل مثل طَمُّوه، والجيزة، وناهية، وطرة أيضًا كانت ضاحية تقع فيها بعض معاصر الخمر وحاناتها، وفى قلب القاهرة: كانت هناك حارة الروم وحارة النصارى، وقنطرة الوز، وبركة الأزبكية، وكانت هذه الحانات يديرها غالبًا غير المسلمين من الأقباط واليهود، وطالما بعث الخلفاء والسلاطين بالأوامر لغلق هذه المعاصر وتلك الحانات، وكثيرًا ما كانوا يبعثون بالشرطة لدهم هذه الأماكن، وكسر آنية الخمر، وسوق السكارى إلى دور الحاكم ليعاقبوا هناك بإقامة الحدود عليهم، ولكن هذا لم يقعد قط بأصحاب المعاصر والحانات عن إعادتها، بل كانوا يعيدونها ثانية لاستقبال المُجَّان واللاهين والمتنزهين.

وفى هذه القصة نعلم أنه كان بالقاهرة كثير من الحانات لارتياد السكارى والمتبطلين، فقد حدث أن أحد القضاة ظفر بسكير، فلما أراد إقامة الحدّ عليه، أنكر الرجل علمه عن الخمر شيئًا، حتى أماكن حاناتها تجاهلها. فلما عدّد القاضى له أسماء حانات القاهرة، وكانت تبلغ العشرين حانة، قال الرجل أصلح الله القاضى، إنه أعلم منى بالحانات فهو أولى بالحدّ.

وكانت تقوم على خليج أمير المؤمنين والخليج الناصرى، أمكنة يرتادها القاهريون ليسمروا فيها، ويتنادرون، كما كانوا يرتادون بركة الأزبكية حيث حديقة الأزبكية الآن تشمل بعضًا منها، بعد أن رُدمت كلها وكانت هذه البركة تتغذى من الخليج الناصرى الذى سنتحدث عنه فى القسم الثانى من هذا الكتاب وكذلك بركة الحبش، ومكانها فى طريق المعادى، وبركة الفيل ومكانها قريب من السيدة زينب.

كانت هذه البرك تضطرب بأصحاب اللهو البرىء وغير البرىء. فكان إذا فاض النيل: اجتمع أهل القاهرة حول هذه البرك، كما كانوا يجتمعون حول خليجىْ أمير المؤمنين والناصرى، ومعهم طعامهم وشرابهم وأدوات لهوهم من عيدان وأرقاق وطبول، فيلهون ويغنون ويطربون.

وكان الأغنياء منهم يمتطون صهوات جيادهم ويجوسون هذه الأماكن متنزهين، وكان المماليك ينزلون فى مقاه على بركة الأزبكية لتدخين الحشيش وشرب الخمر، وكان حىُّ بولاق خاصة يعجُّ ببؤر تدخين الحشيش، وظلت هذه البؤر تمتد من كوبرى بولاق إلى جمعية الإسعاف حتى أوائل القرن العشرين.

وكان شارع بين النّهدين المعروف بالسكة الجديدة اليوم سنة ١٩٥٨ معدًا للبغاء، وكانت نساؤه من الآرمن، ولكنه كان بغاء سريًا غير مصرَّح به من الدولة. فأول من أباح البغاء الرسمى: الفرنسيون حين دخولهم فاتحين، كذلك كان هناك حىّ يمتلئ بالبغايا ويؤمه الفسّاق من أهل القاهرة. اسمه: الربع الزيتى. وقد ذكره بعض الزجالين فقال:

يا ستى وين حبيتى   قالت فى ربع الزيتى

ملاعب للهو البرىء

وكان فى القاهرة فى القرن الرابع عشر الميلادى: ساحة واسعة فى حىّ باب اللوق فيها ملاعب للهو البرىء، كالبهلوانات (السيرك) وللحواة الذين يلعبون بالثعابين ومروضى القرود، وخيال الظل، وكانت هذه الساحة تقصدها النساء وهن محجبات، والأطفال والرجال، وقد ظلت عادة هذا اللهو البرىء حتى عصرنا هذا، فقد كان

سوق العصر فى جوار قلعة صلاح الدين يزخر بمثل هذه الملاهى، كما كانت تقام عند زواج الأمراء والملوك من بيت محمد على ليلهو عندها الشعب فى الساحات العامة.

كان الخلفاء من الفاطميين والسلاطين من الأيوبيين والمماليك يسمرون فى قصورهم. فكانوا يقتنون الجوارى المغنيات والمضحكين من الرجال فكانت إذا صُلّيت العشاء يجتمعون فى هذه القصور هم وأصدقاؤهم وندماؤهم وينصبون الأستار التى تجلس خلفها القيان بعيداً منهن يضربن عليها ويغنين الأصوات المختارة، بأصواتهن الرقيقة. بينما تدور الكئوس على هؤلاء السادة المترفين فيشربون ويطربون.

وقد أخذ هذا الضرب من اللهو خلفاء بنى أميَّة وخلفاء العباسيين عن الفارسيين، وتبعهم فى ذلك خلفاء الفاطميين وسلاطين الأيوبيين والمماليك. ولا تزال عقابيله باقية إلى اليوم فى بعض دور أهل القاهرة. وقد انتشرت هذه العادة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى حفلات الزفاف والختان.

وكان بعض القاهريين يحترفون الغناء والموسيقى فى القرون الوسطى فكانوا يحيون الليالى الخاصة والعامة، ومن هؤلاء نسب الطبّالة التى ضربت للمستنصر الفاطمى وغنّت له، فأقطعها حىّ الفجالة كله.

فيما ظل أغلب لهو القاهرّيين فى دورهم يجتمعون له ويحتفلون به، حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث نشأ حىّ الأزبكية فاندفع الناس إليه.

ويعزى السبب فى إنشاء هذا الحىّ إلى جيش الاحتلال الإنجليزى الذى لا بد له أن يلهو، فقامت بعض الدور التى كانت تحتلّها نساء أجنبيات ومصريات لمتعة الجيش المحتل، ثم أخذت هذه الدور تنتشر وتكثر حتى بلغت المئات وزحمت عدة شوارع، منها شارع كلوت بك، والوسعة، ودرب عبد الخالق، وحارة الكراسى، وحارة الجبرونى فى شارع «الجمهورية» فيما بعد، وشارع التليفون أمام ملهى الأوبرا، وكان قطان هذا الشارع من النساء الأجنبيات، وكان يطلق عليهن (فتيات الأرصفة) وذلك لتسكعهن فى الطرقات لجلب الصيد الحرام.

منيرة المهدية فى نزهة النفوس

* أما شارع وجه البركة (نجيب الريحانى) فقد كان أعظمها خطرًا، فإذا أقبل المساء خرج بعض أهل القاهرة من عشّاق السهر، وكثير من الوافدين من المدن والريف إلى حىّ الأزبكية للهو والمتعة البريئة وغير البريئة، فكانوا يرتادون محلات الغناء مثل الألدراتو القديم فى شارع كلوت بك، حيث يستمعون إلى الصرفية المغنية، وأسماء الكمسارية، وسيدة اللاوندية وغيرهم من المغنيين والمغنيات المحترفين، كما يرتادون الألدراتو الجديد فى شارع وش البركة ونزهة النفوس حيث كانت تغنى هناك السيدة منيرة المهدية التى كان أول غنائها فى مقهى فى بير حمص. وكان ظهورها فى نزهة النفوس دائمًا فى الساعة الثانية عشرة مساء، حيث كانت تقف على المسرح وتغنى (أسمر ملك روحى) وغير ذلك من الأغانى الخفيفة وهى واقفة تقرع خشب المسرح بنعل حذائها.

وكان على مقربة من حىّ الأزبكية فى شارع البواكى: ملهى ألف ليلة حيث كانت تجلس لبيبة فخر الوافدة من الشام والتى تسمَّت باسم

توحيدة، وعلى جانبيها تختها بآلاته الموسيقية، يرجعون ما تعيده من غناء ناعم سيء التأليف . ويحمل إليها الفينة بعد الفينة زجاجات البيرة من المعجبين .

وكانت تلك الأمكنة السالفة الذكر تمتلئ بالنساء البدينات غالبا، والجميلات أحيانًا فى أثوابهن المزركشة بالترتر والقصب، وقد انحسرت أثوابهن عن نصف صدورهن وأزرعهن، فكن يلهبن الجواس فى أقوام كانوا لا يبصرون فى سبيلهم إلا الحجاب الضافى الساتر، وكان هؤلاء النسوة يجلسن إلى روّاد هذه الملاهى على شريطة الفتح أعنى تقديم الخمر لهن بأثمان فاحشة .

الملك فؤاد يأكل الصميت

وربما عرّج أصحاب اللهو على حديقة الأزبكية فدخلوها، حيث يوجد فيها مقاهى الرقص والغناء، فهناك شفيقة القبطية فى مرقصها، تلك الراقصة التى بلغت فى الشهرة مكانًا ذائعًا ونالت من الذهب الشيء الطائل . ثم أضاعت كل هذا، وسلخت شيخوخة معدمة بائسة وماتت وهى لا تملك شيئًا .

أول من غنىّ المنولوج فى القاهرة هما : ليلى وقمر اليهوديتان، وكان لهما منولوج محفوظ من عامة شعب القاهرة وهو :

عصفورى يامه عصفورى   أرقص وأورى لـه أمورى

ثم طرقه بعد ذلك على الطريقة الغربية : الأستاذ عبد القدوس، فكان يلقيه فى المسارح العامة . ومنولوج حسن فايق معروف عند العامة وغير العامة، وهو الكوكايين خلانى مسكين .

وكـانت طيـرة المغـربيـة فى بعض العـهـود : تحـتل تخت الألـدراتو القديم، وهى يهودية يحمل وجهها سحنة الساميين، وكانت تغنى غناءً مغربيًا وكان أشبه بالحداء.

وأما شارع وش البركة (نجيب الريحانى) فقد كان ممتلئا بالبارات العامة، وفيه من النساء عدد وفير بين مصريات وأجنبيات لخدمة الزوار وتسليتهم. وكان من أشهر هذه البارات التى تشبه علب مونمارتر ومونبرناس فى باريس: بار الألكزندرى، وباميه بار، والكستبان الأحمر، وبار مارى، وأوبلسك. وشولار. وفى شارع كلوت بك بار السبعة أبواب وحلوانى اللوفر. وعلى أطراف شارع وش البركة كان يجسم باران هما من أشهر بارات القاهرة قاطبة: دير أكاتوس. وكفيه إجبسيان. وكان يجلس فى البار الأول الملك فؤاد أيام تعطله، وكان ربما احتاج إلى خبز غير الخبز المقدم له على مزة الخمر. فنادى بائع الصميت وابتاع منه ذلك الخبز المملح الذى يطلق عليه الأشتنجل. وفى مائدة أخرى كان يجلس البرنس أحمد ذلك الأمير الإقطاعى الهائل وهو والد الأمير السابق يوسف كمال الذى كان يملك مدنًا كاملة فى صعيد مصر. وكان يحفّ بهذا الأمير الضخم الأحمر الطربوش كثير من الندماء وأصحاب النكتة مثل الدكتور بكير ومحمد البابلى وعجموغلى الإيرانى.

كان بار ديرأكاتوس يقع فى مكان لطيف تصطف موائده على الإفريز المجاور لهذه النافورة الهادرة ليل نهار. ولا تزال باقية إلى اليوم. يراها السالك فى شارع الجمهورية. وكان روّاد ديرأكاتوس ينعمون بالنظر إلى الحرام والحلال. فهم فى متعة بين هذه الوجوه التى تطلُّ عليهم من النوافذ القريبة من نساء أجنبيات كن يقمن فى الأماكن

القريبة المخصصة لهذا الصنف من النساء . وكان أغلبهن على حظ وافر من الجمال والرشاقة وإن كن مبتذلات تعيسات .

كما كان هؤلاء الرواد ينعمون أيضًا بالوجوه النضرة المحجوبة بالأحجبة الشفافة وهى فى العربات الفاخرة الرائحة الغادية ، حيث كان الطريق إلى شبرا فهناك الزروع والأشجار الوارفة وأمكنة النزهة . فقد كانت شبرا ، قبل أن تزدحم بالبيوت المتراصة التى عاون فى إقامتها التقسيط ورخص الأرض : مكانا للنزهة ينافس جزيرة النيل .

سليم السلحدار يقتحم البارات بالدوكار

كان البار الآخر (كافيه إجبسيان) بجواره ويفصل بينهما شارع المهدى . وكان هذا البار أنيقًا عجيبًا لم تر القاهرة له مثيلا فى حياتها كلها فكل خدمه من النساء الجميلات ، وكل مطرباته من النساء الجميلات أيضًا وكن أجنبيات يعزفن على آلات غربية مقاطع لبتهوفن ، وشوبان وغيرهما من أعلام الموسيقيين الأجانب ، وكان ثمن الشراب فيه مرتفع السعر .

ومن رواده : ذوات القاهرة الأغنياء ، فكنت تبصر هناك سليم السلحدار العارم الذى كانت تصطحبه دائمًا حاشية من الأتباع تبلغ اثنى عشر تابعًا بين أسود ، ومغربى ، وطليانى ومصرى ، وقد كانوا له بمثابة الحرس ، للدفاع عن استهتار هذا الرجل الشركسى المتمصر الغنى ، الذى كان يقتحم المقاهى والبارات - بالدوكار - وهى عربة صغيرة يقودها حصان واحد وكانت من مراكب أولاد الذوات فى أوائل القرن العشرين .

فكان إذا اعترض صاحب مقهى، أو مدير بار هجم عليه هؤلاء الحراس فأوسعوه ضربًا وأذى .

ومن الإنصاف لهذا العربيد العارم أن نقول : إنه كان يدفع كل خسائر دوكاره من أوان محطمة وموائد مكسورة .

كذلك كان من روّاد هذا المقهى : عبد الحيّ حلمى المغنى فى صحبة محمد باشا موسى الصعيدى الغنى، ومن رواده أيضًا كبار ضباط الجيش، والمستشارون فى المحاكم الأهلية . وبعض كبار الأجانب .

وكان عباس حلمى الثانى يأبى على حاشيته ورجاله الاختلاف إلى المقاهى والبارات إلاّ هذا البار الراقى .

وفى فترة من المرح والموسيقى : تلمّ بهذا البار فتاة حلوة مخضبة اليدين والكعبين بالحناء تعصب رأسها بمنديل تتذبذب من حواشيه حلقات منسوجة بين خضراء وحمراء وبنفسجية، وقد حملت سلة لطيفة مملوءة بالأذرة المشوية، وهى تنادى : توب على من الأزبكية . . ومشى الأزبكية . . وشخط الشاويش مع الغفير فيه . . يا دره عالى يا مشوية .

وإذا دلفت إلى الوسعة هناك قهوة إلياس . . ذلك الإغريقى المهاجر فى طلب الرزق الحرام، الذى أعد قهوته هذه للمتعة البشعة، فقد جلب لها النساء أنصاف عرايا مدربات على الرقص، حيث يستعملن بطونهن وصدورهن للتعبير المثير وربما وضعن على رءوسهن الأوانى الملأى بالماء يرقصن بها، فلا تقطر منها قطرة واحدة، ولا تنحرف انحرافة يسيرة عن رءوس هؤلاء المتلويات المترنّحات، وربما حملن الشموع فى أوانيها، وقد حداهنّ رجال يلبسون الأثواب الفضفاضة ويلتحفون بأوشحة من الحرير اللاّمع . وفى أيديهم وأفواههم مزامير

طويلة تبلغ المترين، ينفخون فيها على دقات الطبول ليثيروا بهذا التوقيع هؤلاء الراقصات.

وفى أغلب منازل الإثم من شوارع وجه البركة والوسعة ودرب طياب كنت ترى هناك حلقات مجتمعة للغناء، ترأسها نساء يغنين بأصوات قبيحة غالبًا، حسنة فى النادر القليل، وقد تحلّق حولهن سُمَّار سكارى معربدون يصيحون تارة ويصفقون تارة أخرى، فى أصوات صاخبة واضطراب مزعج، تضيع فى ضجيجه هذه الأصوات المبحوحة المجهدة.

وكانت هذه الليالى تنتهى دائمًا بالشجار والملاكمة والسباب، وربما بلغت مكانة الخطورة فيموت فيها البعض وتشجّ رءوس البعض الآخر وتفضى حوادثها إلى أقسام البوليس ثم محاكم الجنايات.

عزيزة الصرصارة

من أشهر هذه الحلقات: حلقة الأسطول، والأسطول اسم كان يطلق على صاحبة هذه الدار التى كانت تُعقد فيها هذه الحلقات، وكانت امرأة ضخمة رهيبة لها أعوان مسلّحون بالمدى والعصىّ الغليظة وماء النار فكان إذا عربد معربد وأخرجت الخمر زائرًا من المرح الهادئ اللطيف إلى الصخب والضجيج والشجار أخرج هؤلاء الأعوان سكاكينهم وعصيّهم وصبوا ماء نارهم على الوجوه والرءوس والأذرع ووقعت الواقعة فكان الصفير الحاد واختلاط الجلوس بعضهم ببعض والهرج والتزاحم ثم دخول البوليس وسوق الجميع إلى المخفر.

وكانت تشبهها فى الخطورة «حلقة المللدنة» وهى امرأة نحيفة لا تجدها إلا متكأة على الحشايا المبثوثة. ولكنها على رغم نحافتها وسقمها البادين كانت فى شراسة النمر.

وهناك أيضًا كانت دار عزيزة الصّرصارة. وهى امرأة فيها خبث ولين. ومن أشهر من عرف عندها من النساء: امرأة اسمها فردوس قطط، كانت تعجب طلبة المدارس. وهناك أيضًا دار منيرة الخفير وهى كسابقاتها.

ومن أشهر الدور أيضًا فى تلك البؤر: دار نعيمة الظباطى. وكانت امرأة بيضاء مصفرّة الوجه. وقد لحقها هذا اللقب لغرامها بالضباط الشبان وحبها لهم. فكنت لا تطرق دارها إلا ووجدت هذه الدار تضطرب بالضباط الصغار. وكانت كثيرًا ما تغنى لهم هذا الصوت: «يا حاطط على السترة نجمة».

فإذا عرّجت على شارع المهدى المجاور لشارع وش البركة كنت تجد هناك فى بار معروف كبار المصريين. وكان يجلس فيهم أحيانًا الأمير أحمد فؤاد «الملك» يشرب ويستقبل بالتعظيم والإكبار المقرونين بشىء من التهكم الخفى لإفلاس الأمير. وكان بينهم: شريف بك بن على شريف باشا التركى. وهو أيضًا أخو حرم عدلى باشا يكن.

كان لا يترك لبس البونجور فى ليل ولا نهار. وربما صحب معه امرأة فرنسية جميلة رائعة. فشرب معها كاسات. ثم تنصرف وحدها وقد حملت فى حقيبتها من الثرى المتلاف عشرين جنيها من الذهب. ولهذا الغنىّ السكير حادثة مع الأديب محمد المويلحى. فقد تشاحنا يوما فصفعه شريف على خدّه. فبلغ هذا الحادث الشيخ على يوسف صاحب المؤيد. وكان ينقم على محمد المويلحى تشنيعه به

فى صدد زواجه بالسيدة صفية بنت السيد عبد الخالق السادات فى صحيفته مصباح الشرق. فأطلق الشيخ على يوسف على هذا الحادث: عام الكف. مثل عام الفيل فى الجاهلية وعام الجماعة فى الإسلام.

وإذا انتقلت إلى الوسعة فى باب الشعرية وهى أفظع هذه البؤر وأقذرها وجدت ما يشبه الحوانيت وقد أسدلت عليها أستار حمراء. ووقفت أمامها نساء بائسات قبيحات يشاكسن عرّام الرجال بألفاظ نابية سمجة.

أسطورة إبراهيم الغربى

كان عميد هذه البؤرة وسيدها والحاكم بأمره فيها: رجل مخنث يتكسر تكسر النساء ويلبس حليهن ويتمايل تمايلهن ويخشاه الجميع. حتى البوليس كان يخشاه لنفوذه الذى كان يستمد قوته من ماله المبذول لكبار رجال البوليس الأجانب مثل هارفى باشا حكمدار القاهرة وفليبيدس السورى الرهيب، وسانتى الإيطالى.

وكان إبراهيم الغربى هذا يجلد ويسجن ويقتل أحيانًا هؤلاء الرقيق من النساء اللواتى كان يملكهن ولا يستطعن فكاكا من قبضته القوية المسيطرة بالرشوة لهؤلاء الإنجليز والطليان والمتمصرين. ولم يزل هكذا يجلد ويسجن ويقتل حتى نكب الذين كانوا يظلونه بجاههم ووظائفهم. فقد عزل الحكمدار هارفى بعد أن ثبتت عليه الرشوة من هذا المخنث وغيره وسيق فليبيدس إلى السجن حيث قضى فيه خمس سنوات مات بعدها ذليلا فقيرًا. وبعد ذلك سيق ذلك الوحش الذى فيه

طبائع النساء وفجر الساقطات منهن إلى السجن لجرائمه وقسوته وتحريضه القاصرات على الفجور، وقد مات هناك ذليلا مريضا.

وكان يعقد هذا المشوه مجالس للتسلية المنكرة للأجانب من السائحين ويتقاضى على ذلك أموالا كثيرة وقد بلغت ثروته عددًا ألفيًا كبيرًا من الجنيهات.

ولم تشهد القاهرة في حياتها الطويلة أهول ولا أفظع ولا أشنع من هذا الأسود المخنث القوّاد ابن تاجر الرقيق الذى بدأ حياته تقيًا ورعًا حتى إذا ارتحل فى رحلة شائنة لأبيه النخاس. تحولت حياته من التقوى إلى الفجور والشذوذ. وقد أراد أبوه قتله لولا تدخّل بعض الضباط المصريين. وقد أنشأ هذا الخنثى العجوز عشرات البيوت، وأكثر من مقهى للرقص الخليع المرذول.

الجنود الاستراليون يحرقون بؤر الدعارة

وقبل أن نبرح هذه البؤر التى كانت مواطن اللهو فى أوائل القرن العشرين يجب أن نذكر فيها هذه الحانات: التى كان يديرها ألمان وفرنساويون وهى: شولار وفراتوس. وأوبلسك. وفلاش. وفينيش وأجزاندريا بار. والكستبان الأحمر. وبار مارى. وقهوة اللوفر وحلوانى اللوفر.

وكانت تقوم فى هذه البؤر: مسارح متواضعة للتسلية والفكاهة. فكان هناك: أحمد الفار الذى بدأ حياته عاملا فى العنابر ثم ختمها مضحكا مهرجا. وكان فيها مسرح سيد قشطة ذلك الضخم الجسم والوجه الذى اشتهر بأغنياته المضحكة وإشاراته المعبّرة عن السماجة

التى يضحك لها البلهاء وقد اشتهر هذا الرجل بين أهل القاهرة حتى أطلقوا اسمه على فرس البحر فى حديقة الحيوان . فهو يشبهها شبها يكاد يكون تاما .

وفيها مسرح كامل الأصلى الذى كان يحمل مكنسته ويحاول أن يضرب بها كل زائر ريفىّ يحاول أن يحاوره فيما يقول من مهاترات جنونية .

ومما عرف من البوليس الأجنبى الذى كان موكولا إليه حفظ النظام فى هذه البؤر ميسيو كارتييه السويسرى ، وكان ضابطا رقيقًا لطيفًا بهؤلاء التعيسات ، وريماندا الإيطالى ، وكانت وظيفته : فض الخصومة بين هؤلاء النسوة والروّاد من الجمهور عند الاختلاف على الأجور ، وسانتى الإيطالى ، وعمله ضبط كل امرأة يلمحها خارج دارها وسوقها إلى المخفر للعقاب . فكان للمشرفات على هذه البؤر : عيون تراقب ، حتى إذا أبصرت طلائع ركب سانتى بادرت بالتنبيه ، فعند ذلك تسرع من النساء اللواتى وقفن أمام الأبواب للتعرض والدعوة .

وكان يعرف هناك غير هؤلاء : قوّاد بائع رقيق أجنبى ، اسمه لاينسن ، كان يقوم برحلات إلى أوربا لجلب الرقيق لتغذية هذه الحجر الحمراء النتنة الريح .

ولم تزل تلك البؤر تزدهر وتكثر نساؤها حتى جاءت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ فطرقها الجنود الأستراليون وأحرقوا بعض بيوتها بما فيها من نساء ، فخاف زوارها من المصريين من هؤلاء المجرمين أبناء المجرمين المنفيين فى هذه البقاع الشاسعة ، وأخذت تلك الأماكن تنكمش حتى ألغى البغاء . سنة ١٩٤٨ .

العشيق ينام على أكياس اللبن

فإذا برحنا هذه الأماكن العلنيَّة البغاء، وأردنا مشاهدة تلك الأماكن الأنيقة المهيأة على الذوق الفرنسى على غرار حانات موتمارتر وعلب مونبرناس.

وإذا عرجنا على ملهى مدام مارسيل ومكانه الآن سينما ستديو مصر. فوجدنا هذه السيدة البدينة القصيرة التى لها حزم قوَّاد الجيوش، والتى كانت يطلق عليها فى قريتها الفرنسية إذا نزلتها فى الشتاء: القديسة مارسيل لكثرة برها بالفقراء وبذلها أموالها للمرضى والمحاويج.

فقد كانت هذه المرأة السالبة الناهبة التى تحرص على تقاضى أثمان خمرها، المقدمة إلى نساء ملهاها أضعافا مضاعفة. تبذل هذه الأموال فى سبيل الإحسان والخير لقومها من الفرنسيين.

وكانت هذه القوَّادة البارعة لها ذوق لا يجارى فى اختيار النساء من جميع أنحاء أوربا. وكانت تختارهن فنانات ذوات أصوات فضيّة، وأجسام بضّة فارعة ووجوه حسان.

وكان روّاد ملهاها من أرقى طبقات المجتمع وأغناهم. وهم بعد ذلك لا يعرفون للمال قيمة. فقد كانت قوارير الشمبانيا بأوانيها المصقولة المغطاة تملأ موائدهم، ولا تزال قذائفها تنطلق مدويَّة، وقد حفَّ بهؤلاء السادة نساء مدام مارسيل الحسان فى أثواب شفافة تكشف كل خفىّ فى أجسامهن البضة الرخصة.

وكان هذا الملهى يعرض على روَّاده أرقى أنواع الاستعراض

البـاريسى من غناء ورقص وخـلاعـة . وقـد ظلت هذه المرأة تحـتل هذا المكان (كـازينو دى پار) حتى أجـلاها عنه سـتـديو مصـر . فغـادرته إلى مكان بجوار هرم خوفو . ثم انطوت صفحتها ورحلت إلى فرنسا .

ومن أشهر روّادها : على كامل فـهمى ابن المهندس على باشا فـهمى صنيعة ويلكوكس الإنجليزى . الذى نشأ أجيراً وانتهى مليونيراً . وقد دلّل ابنه هذا حتى نشأ منطلق الهوى . فلما مات عنه وكان صغيراً، نبت مستهتراً لا يعرف إلا اللهو ولا يصاحب إلاّ كل من يزين له طريق المتعة الحادة المحفوفة بالخمر والنساء . وقد اشترى سيارة كانت لغليوم الثانى بخمسة آلاف جنيه وظل كذلك حتى تزوج من امرأة فرنسية أردته قتيلا فى فورة جنسية شاذة .

وكـان يجرى مـجراه وينسج على منواله فتى من أسرة شركـسيـة . كنت تراه دائمًا ملازما ملهى مدام مارسيل . وهو لا يفيق من الخمر . وقد صرعه سكين مستهتر مثله فمات ولم يشرف على الثلاثين من سنه هو حسن الجباخنجى . وكـان غير هؤلاء كثير من الوارثين الجهلة الذين كـانوا يشقون شوارع القـاهرة بعرباتهم الفـاخرة فى سرعة جنونيـة وهم يرسلون أصوات أبواقهم فى آذان الشعب الراجل المذعور .

وقـد أخذت مـدام مـارسيل فنَّهـا الأنيق فى إدارة ملهـاها عن امـرأة أخرى فرنسية تدعى مدام جاندكس ، وكـانت تعشق أميراً مغربيًا طريراً مرفـوع الشـارب . يشبه الملك السابق فؤاد تمام الشبه . وكـانت تدلِّله وتُغنى به . حتى إنهـا كـانت تعـد له أكيـاسًا من المطاط مملوءة بـاللبن لينام عليها لتبقى لوجهه طراوته .

كـان سكن مدام جـاندكس هذه فى عـمـارة يحـتل مكانهـا الآن بنك باركليز فى القاهرة ، وكانت تحضر لزوّارها من الأسر الكبيرة المنحدرين

من أصول شركسية، هؤلاء الذين كانوا يملكون أكثر الأطيان الزراعية فى مصر، وهى التى أقطعهموها محمد على وأولاده وحفدته كما كان من زوارها أيضًا كبار رجال الجاليات الأجنبية أصحاب الامتيازات الممنوحة من عهد السلطان سليمان.

ألبومات صور غوانى باريس وروما

كانت هذه المرأة تعرض على هؤلاء المترفين ألبومات مصورة تزدحم بالوجوه الحسان من غوانى باريس وروما، حتى إذا أعجب وجه من هذه الوجوه واحدًا من هذه الوجوه المزيفة الكسالى، أرسلت فى استدعائها، لمتعة الوجيه المتلاف على نفقاته، حتى إذا بلغ منها غايته رجعت إلى بلدها على نفقته أيضًا، أو استعارها غيره من قرنائه، حتى تعم الفائدة الجميع.

ومن البيوت الأجنبية التى اشتهرت فى القاهرة فى مستهل القرن العشرين: بيت مدام «بورش» بجوار العمارة التى تسكنها اليوم بلدية القاهرة، وكانت تعرف فى القديم بصندوق الدين، فى جنب مصلحة البريد.

وكان هذا البيت يدار للدعارة السرية، ولا يؤمّه إلا الأغنياء الذوات، لغلاء أثمان الأعراض فيه لجمال ساكنيه، وكان محرّما على البوليس مداهمته. أو إزعاج من فيه من الجنسين لحماية قناصل الدول له. ولخطر صاحبته عند هؤلاء القناصل لأموالها المبذولة.

وإذا أردنا أن نجمع بين اللهو البرىء واللهو المريب دخلنا حديقة الأزبكية المزروعة من عهد الخديو إسماعيل، والتى كانت ماءً فردمت فى أزمان متتابعة، فأصبحت أكبر متنزّه للقاهرة وملهى.

ففيها كانت قهاوى الرقص متناثرة يؤمها عشاق هذا الفن الخليع كل مساء . وفيها كانت بركة من الماء تمخرها قوارب صغيرة لطيفة كأنها الجندول فى فينيسيا ، يركبها العشاق فى الليالى القمرية المنسكبة الضوء الفضىّ وتحت ظلال أشجارها كان الهمس الخفى بين الأفواه الظامئة إلى الشهوة والآذان الصغيرة المتظاهرة بالإصغاء لجلب المنفعة وسلب الأموال الحرام وفى زوايا جبلها الصناعى كان الغزل ينساب بين العشاق .

ومن أشهر أماكنها : محل سانتى ، كان طعامهِ جيّد الطهو وخمره معتقة وقصاده من الأورستقراطيين الأغنياء . وقد ظلت السيدة أم كلثوم تغنى فيه ليالى كثيرة .

مقاهى القاهرة وباراتها وكباريهاتها

من أشهر مقاهى القاهرة ولا يزال إلى اليوم : مقهى نوبار . فقد كان مجمعًا للذوات والفنانين ووجهاء الريف . وفيه كان يقضى عبده الحامولى الموسيقار الأشهر أمسياته مع صديقه الثرى الذى أفلس بعد أن أنفق نصف مليون من الجنيهات : باسيلى بك عريان . وكان يجلس معهما محمد بك ثابت بن ثابت باشا الوزير فى عهد إسماعيل . ومحمد عمر الصراف الذى أشرف بعد ذلك على التسعين . ولم ينس نصيبه من الدنيا . والفريق إبراهيم فتحى المعروف بالصراحة المفضوحة . وربما طرقهم خليل مطران الشاعر وسليم سركيس الصحفى . وعبد الحميد أباظة الأنيق الفضى الشعر وفى فمه سيجاره الضخم .

ويضيق باسيلى بك عريان بزبائن المقهى الغرباء فيأمر صاحبه أن يخليه له ولأصدقائه فقط . على أن يعوِّضه الخسارة وزيادة .

ومن المقاهى الشهيرة أيضًا : مقهى السنترال ، وكان يقال له أيضًا «أوبرا بار» وموضعه الآن جزء من ملهى صفية حلمى فى ميدان الأوبرا وزوار هذا المقهى من غواة النرد والشطرنج ولعب الورق .

ومن مشاهير المقاهى كذلك : إسبلندد بار . وكان يواجه حديقة الأزبكية ويقع فى شارع الجمهورية (إبراهيم باشا) وجلساؤه من إخواننا الأدباء السوريين . مثل الدكتور إبراهيم شدودى . والدكتور شبلى شميل المتشكّك . وجورج طنوس . وطنوس عبده . وكان يجالسهم ويحاورهم الشاعر ولىّ الدين يكن . وحافظ إبراهيم ووحيد الدين الأيوبى اللغوّى العجيب . والشاعر أحمد نسيم وعبد الحليم المصرى .

ومن مشاهير المقاهى : مقهى متاتيا وهو باق إلى اليوم . وهو مقهى من الدرجة الثانية . وكان المترددون عليه فى القديم : السيد جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده . وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوى . ثم جاء بعدهم إمام العبد الزجال الظريف . وخليل نظير الزجال أيضًا الذى لا يفيق من الخمر ، والأستاذان المازنى وعباس العقاد . والشاعر حافظ إبراهيم والشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة عكاظ . وغيرهم من الأدباء الفقراء الذين كانوا يجدون حاجتهم من طعام الفول المستكن فى قدوره النحاسية . والذى كان يحتل مطعمه ركنًا قصيا من هذا المقهى .

أما قهوة القزاز التى ذاع صيتها فكانت تحتل الجانب الأيمن من شارع الموسكى إذا خضته من ناحية العتبة الخضراء . وكان عامة زبائنه من أهل الريف . وبعض أهل القاهرة الذين كان يعجبهم النظر إلى القاهريات المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء المخرقة التى تعلوها قصبات ذهبية لامعة فى رواحهنّ وغدوهنّ فى الشارع التجارى الأول فى ذلك العهد .

وعلى مقربة من مقهى القزاز . كان هناك حلوانى يسمى بمحل

اللبان. يبيع الفطائر واللبن بأنواعه، وجلساؤه من أصحاب التصابى العسكريين القدامى. فكان منهم من حارب مع عرابى فى الثورة. ومنهم من شهد حرب الحبشة ومنهم من حضر فتح السودان وغير ذلك من الحروب البعيدة العهد. كانوا كلهم قد جاوزوا السبعين. ولكنهم كان يعجبهم أن يصبغوا شعورهم ويتظاهروا بالشباب. وبجواره: مقهى النيل حيث كان يجلس غواة اليانصيب وغواة الرهان على السباق. ولعباء النرد بالرهان.

حسب الله وفقراء الموسيقيين

وعلى حفافى شارع محمد على مكان سوق الخضار اليوم: مقاه ركبت من الخشب يسمر فيها السوقة مدخنو الحشيش ومحبو النوادر والقفش البلدى (أصحاب القافية). وفى القرن التاسع عشر كان فى شبرا مقهى معروف اسمه: قهوة سى خليل. يجلس فيه أصحاب الكيوف.

وإذا دلفت إلى يسارك واتجهت إلى يمينك فى شارع محمد على ألفيت مقهى مضى عليه أكثر من مائة عام واسمه القهوة التجارية. ولا يزال قائمًا إلى اليوم فى أول هذا الشارع وصاحبه الآن الحاج على. وكان منتدى للفنانين ومحلّ اجتماعهم. وكان لهم بمنزلة دار النقابة. ولا يزال يجتمع به إلى اليوم فلول من فقراء الموسيقيين من أتباع حسب الله. ذلك الموسيقى الأول. الذى كان يعمل فى موسيقى الحرس الخديوى. حتى إذا خرج منها ألف أول جوقة للموسيقى فى القاهرة. تسير فى مواكب الأعراس. ونعوش الجنائز.

وكانت القاهرة قبل حسب الله لا تعرف هذا الضرب من الموسيقى الموفى على الزوال اليوم. ولا تعرفه إلا فى المواكب الرسمية التى تحتفل بالخديو.

وإذا أمعنت الخطو فى هذا الشارع. وجدت مقهى الكتبخانة أمام دار الكتب المصرية. حيث كان يجلس حافظ إبراهيم الشاعر فى أوقات عمله الرسمى يدخن النارجيلة. ويسمر مع موظفى الدار وغيرهم من زوّاره أمثال الشيخ علام سلامة والشاعر عبد المطلب. والشاعر حسن القاياتى. وصديقه الظريف محمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى. وأحمد جاد نديمه وسميره. وربما طرقه للأنس به المرحوم الوجيه على راتب.

وعلى كثب من هذا المقهى: كان هناك محل للشراب الحلال يسقى منقوع الشعير والزبيب والخروب والسّوبيا. وكان صاحب هذا المحل واسمه صالح الشربتلى معروف من أهل القاهرة كلها. يقصده أولاد البلد على حُمرهم الحصاوى الملجمة بلجم علائقها من الفضة التى تتذبذب على آنافها ما بين جزّار وبنَّاء ونسّاج. وكان غيرهم من أوساط الناس من الموظفين وغيرهم من الشعب يجلسون على المقاعد فى عصارى الصيف يشربون الشراب ليتبردوا أمام دكان محمد صالح الشربتلى هذا.

مهارشات الديوك

وكان وراء دار الكتب المصرية: مقهى بلدى لرجل عُرف بشغفه بالديوك ومهارشتها؛ فكان من زواره: محرم باشا شاهين المشغوف بهذه الهواية وهو قريب الملكة نازلى. ومن زواره أيضًا: عبد الحميد

شريف، ابن على باشا شريف التركى الغنى الذى أفلس . وكان يعلق هذه الهواية . ويزيد عليها هوايته باقتناء الحمام الغُزَار وتربية الثعابين . وكان غيره من الهواة من الأغنياء والفقراء يجتمعون فى مقهى هذا الرجل الذى يسمى (بقهوة الديوك) يتناقشون ويحتدون ويستبون أحيانًا من جراء هواياتهم هذه .

وإذا تركنا هذا الشارع وتيامنّا إلى حىّ الصليبة فى أواسط القرن التاسع عشر ألفينا هناك مقهى الأتراك . وكان خاصا بهؤلاء الباشبوزق الذين كانوا يؤجرون أنفسهم من بيت محمد على للحرب والذين فنوا جميعًا فى موقعة هكس فى السودان بيد دراويش المهدية .

وإذا انتقلنا إلى دار صحيفة الأهرام . وجدنا قبالتها المقهى الشهير باسم بار اللواء(١) وقد أسس فى أوائل القرن العشرين تيمُّنا باسم الصحيفة المجاهدة التى أسسها مصطفى كامل . وكان جلساؤه : مصطفى كامل وأخوه على كامل والشيخ عبد العزيز جاويش . والصوفانى وداود بركات وأنطون الجميل ومحمد البابلى وتوفيق فرغلى والشيخ حلمى طوماره ومحجوب ثابت والدكتور أنيس أنسى . والشيخ أحمد العسكرى وغيرهم من الصحافيين والأدباء .

كامل الشناوى فى بار الأنجلو

وفى الطريق المفضى إلى شارع قصر النيل المواجه لهذا المقهى . كان يقع بار الأنجلو . وكان معروفا بشرابه المعتق وحسن أدب خدامه . وكان صغيرًا ولكنه كان مألفا للدكتور الجرّاح على باشا إبراهيم والمستشار

---

(١) مكانه الآن محل للتجارة .

سليم زكى والمستشار أحمد كامل والوزير محمود غالب والوجيه عبد الحميد البنان والشيخ عبد العزيز البشرى والدكتور شوشة باشا والاقتصادى أحمد نجيب الذى كان يحتل بنك الشراب ما بين الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الثالثة مساء. وكان يؤمه أيضًا المرحوم سليمان نجيب الفنّان. وكامل الشناوى الصحفى. وعلى الجملة كان زوار هذا البار من علية المثقفين الوجهاء.

وبعد خطوات كثيرة تتجاوز المائة بقليل. نلمح مقهى(١) الرتز أمام البنك الأهلى. هذا المقهى الصغير الأنيق الذى كان يؤمه توفيق الحكيم والمرحوم عبد القادر المازنى. والعقاد. وكان يلمّ به أحيانا محمد التابعى وسليمان نجيب والصاوى وأحمد الألفى عطية ومحمد العياط. والدكتور ناجى الشاعر. وعلى أطرافه كان يجلس عبد الحميد عكاشة. يرقب بعين نسر ضحاياه من الذوات والوجهاء حتى إذا رأى أحدهم انقض عليه فى سرعة خاطفة.

محمد عبد الوهاب فى عمارة الجندول

وإذا أسرعنا الخطو فى أوائل القرن العشرين. وخضنا فى أحشاء شارع بولاق (شارع ٢٦ يوليو) عثرنا على بار سان جيمس. مكان عمارة الجندول لبانيها محمد عبد الوهاب المطرب. وألفينا فى لياليه الحمراء: شوقى الشاعر وعمر لطفى المحامى ومحمود حسنى ناظر المدرسة وخليل حمدى قومندان كلية البوليس وحسن رضا المحامى. وغيرهم من العرّام فى الشراب وحب الوسكى.

---

(١) يقع مكانه الآن: محل تجارى وهو فى عمارة الأيموبيليا.

وعلى يميننا فى موضع شيكوريل . كان يقوم بار صولت الحلوانى الذى كان تحتل أغلب موائده نساء أجنبيات يتحدثن إلى الجلوس من الرجال على مبعدة منهن بالعيون والبسمات الخاطفة لعلهن يقنصن ما يقوم بطعامهن وزينتهن ومأواهن . وكان شوقى الشاعر لا يغيب عن هذا البار الذى هو أيضًا مطعم ومحل حلوى ومشرب للخمر ، فكنت تراه دائمًا هناك من العاشرة مساء حتى الواحدة صباحًا وقد تحلّق حوله : محجوب ثابت وعبد العزيز البشرى ومحمود فهمى النقراشى وعبد الحليم العلايلى وأمين الرافعى وسليمان فوزى صاحب الكشكول وصالح البهنساوى وغيرهم من الوجهاء والأدباء والصحافيين .

وعلى محاذاته كان يقع بار المحروسة ذو الأبسطة الحمراء والمرايا اللامعة والبنك المرتفع المقاعد . حيث يجلس الوجهاء من آل يكن . ومن آل المانسترلى وغيرهم من الشباب الجركسى الأصل .

وفى مواجهته كان يقوم بار بطرسبرج . وكان يعرف بطعامه الشهىّ وأناقة موائده وعثنون صاحبه .

وإذا رجعنا من هذا البار وخضنا فى الشارع الآنف الذكر دخلنا مقهى بور فؤاد حيث يقتعد الموظفون مقاعدهم على الإفريز العريض فى عصر كل يوم ينتهبون وجوه الغاديات الرائحات الشاريات الحسناوات فى نهم وظمأ . وربما تعرض أحد هؤلاء الجالسين بغزل سمج قوامه البذاء والجرأة . وعلى مقربة منه على ناحية شارع سليمان باشا كان يقع مقهى البول نور وهو كسابقه تمامًا . وعندما نبرح هذا الشارع وندلف إلى يسارنا فى شارع سليمان باشا ألفينا محل الأمريكين حيث يجلس خليط من المصريين والأجانب يستمتعون برخص الأسعار

وجودتها من الأكل والمشارب والتمتع بالوجوه من نساء. رائحات وطارقات.

وعندما نبرح شارع سليمان باشا ونعرّج على ميدان سوارس (ميدان مصطفى كامل) تسوقنا أقدامنا إلى دهليز طويل، تواجهنا فى أخرياته حديقة واسعة. تتوسطها نافورة تدفع الماء إلى الجو. وقد حفتها بيوت مقامة من الخشب البغدادلى المعروش بالشجر المتهدل. وقد صف فى كل بيت من هذه البيوت مائدة واحدة محفوفة ببضع مقاعد. كان يجلس فيها الفنانون والشعراء والعشاق. وكان خير ما يقدم فى هذا المكان الشاعرى الظلال: شراب الشاى لأن صاحبه هو ليبتون[1] ملك الشاى فى العالم، وهو محل إنجليزى الطبعة حتى إن المشرفين كانوا من الإنجليز.

ظرفاء شارع خيرت

وإذا أردنا أن نلم بظرفاء شارع خيرت ونجلس إليهم ونعابثهم، ذهبنا إلى وزارة المالية، وجعلناها على يميننا، فنلمح مقهى موشيدى حيث كان يقضى إمام العبد بعض أوقاته يشرب الزبيب فى صحبة خليل نظير الزجال وسليمان جبريل العاطل وسليمان طبيخة السكير وحسين الترزى، وهم يتنادرون ويتضاحكون بعضهم على بعض.

ولو شئنا أن نلم بالأرستقراطية فى تظاهرها ونفاقها، قصدنا شارع المناخ (شارع عدلى) حيث يجلس التظاهر فى أثوابه الأنيقة وشعوره

---

(١) أصبح اليوم: كباريه.

المصفوفة وبسماته المغتصبة. يتحدث فى السباق والنساء واحتقار الشعب فى مقهى جروبى. الذى كان يمتلئ بالجمال الأجنبى من نساء ممشوقات حسان. ولم تلبث أن دهمت ثورة ١٩١٩ هذا المكان بحماسها. فكانِ الطلبة يجتمعون فيه ويخطبون ويوزعون منشوراتهم الملتهبة. فلم يلبث زواره من الأورستقراطيين أن انسلوا من أبراجهم الذهبية واندسوا فى غمار الشعب يهتفون لهؤلاء الشباب من الزبائن الجدد لهذا المكان الرفيع وأصبح الجميع سواء فى كره الإنجليز والتطلع إلى الاستقلال.

وفى الحق أن محل جروبى هذا: كان أول داعية إلى الديمقراطية فى مصر فقد جمع الجميع على حبها والتضحية لها؛ وجلس فيه الأرستقراطى الشركسى النشأة مع ابن الفلاح الفقير، يتحاوران ويتآمران ويتحمسان لمصر، وطالما عرف الإنجليز خطر هذا المكان عليهم، فكانوا كثيراً ما يدهمونه بجنودهم وأسلحتهم للتخويف والاعتقال والقتل فى بعض الأحيان وفى مقهى[1] الشيشة فى شارع الجمهورية (شارع إبراهيم) أمام حديقة الأزبكية كان يجتمع شمّامو الكوكايين وهواة المصارعة بالكلاب: أمثال أمين الدرى وفيتاسيون. ومعهم كلابهم الضخمة المعكومة خشية العض والنهش. ومعهم محبو تدخين النرجيلة المعممة بأوراق التمباك. يضحك ماؤها فى أوانيه الزجاجية وتنطلق من أفواه ماضيها سحب من الدخان الأزرق وكان من أشهرهم: جلال الدرمالى فاتن النساء بقوامه الفارع ووسامته وحديثه وتجاربه ومعرفته بأخلاقهن.

---

(١) مكانه الآن محل للتجارة.

الجياد المطهمة أمام مقهى دلبانى

وإذا شئت أن تستروح نسيم النيل . وعبرت كوبرى قصر النيل قبل حرب سنة ١٩١٤ رأيت العربات المشدودة إلى جيادها المطهمة المسكوفية تنتظر راكبيها على جنبات مقهى (دلبانى) . حيث تزدهر اليوم حديقة الأندلس المنمّقة الرصف اليانعة الزهر . وكان هذا المقهى من أشهر مقاهى القاهرة للنزهة . وكان روّاده من الأغنياء عشاق الخمر والنساء . فكنت إذا دخلته بعد الساعة الثانية من الصباح ألفيت هناك شفيقة القبطية وأسماء الكمسارية . والصّرفية . ومنيرة الخفير ونرجس . ومعهن أصحابهن الذين كانوا يجلسون إليهن فى الألدراتو القديم . والألدراتو الجديد وألف ليلة ونزهة النفوس، فى أول الليل وقدموا إليهن الشراب بأثمانه الفاحشة ؛ فجوزوا منهن بهذه الجلسة الحالمة الناعمة . وذلك الانفراد العاطفى على ضفة النيل القديم .

وكنت تلمح فى هذا المقهى رجلا طريرا طوالا أبيض الوجه يتزيا بزى مفضوح غالى الثمن . ويتعمّم بعمامة لطيفة تفصح عن طرّة كستنائية الشعر لهذا الشاب العجيب الذى لا تبصره القاهرة إلا وهو يسوق دوكاره اللامع . وقد رفع سوطه يلهب به الجواد المطهم . ذلك هو الحمصانى صاحب أشهر منسج لحرير الأحزمة والقفاطين فى مصر فى ذلك العصر :

وفى شارع عماد الدين حيث اللهو والمسارح وأولاد الذوات الذين يطاردون النساء الممثلات بعرباتهن . كانت تقع قهوة كسّاب . مكان عمارة الأنيون الآن . وكانت مألفا لبعض الظرفاء من السادة أشباه : إبراهيم باشا رأفت الذى بلغ الثمانين وهو يمرح ويلهو . وكأنه شاب فى

العشرين . وعلى باشا ثاقب المستشار . وعبد الله بك أباظة الوفدى الوحيد فى الأسرة الأباظية . وكان فى غاية من الظرف والأناقة . ويوسف بك حلمى الموظف السابق فى وزارة المالية . ومعهم ذلك الفتى السورى البضّ الذى كان لا يفارقهم . وكانت شارلوت الساقية الألمانية تخدم الزبائن فى البار الأمريكانى من هذا المقهى . ومعها لينا الإيطالية تملأ الكئوس لهذه الألمانية الحلوة الوجه فتحملها إلى الزبائن الذين كانت تتهالك على طلب البقشيش منهم لتنفقه على ملهى السيروس الذى كان مديره محمد وهبى شقيق يوسف وهبى فى شارع سليمان باشا بعد أن تفرغ من عملها الساعة الثانية صباحًا .

وكان من أشهر روّاد هذا المقهى : عباس شريف المحامى النابه الذى كان يواصل صبوحه بغبوقه . ولا يمل الحديث المتواصل والضحك الصاخب .

أمينة رزق الحزينة دائما

وفى قبالة مسرح رمسيس (مسرح الريحانى) كانت تقع قهوة الفن . وعلى مقاعدها تبصر البؤساء والفنانين والأدعياء . والنساء الفنانات الضاحكات ومعارفهن من أولاد الذوات وغير أولاد الذوات . فكانت هناك مارى منصور الخمرية اللون الصريحة الإشارة ، والمرحة دائمًا فى ضحكات تملأ ذلك المنعطف الواسع . وهناك أيضًا زينب صدقى التركية الوجه اللاذعة النكتة . وبجوارها كانت تجلس دولت أبيض السيدة الوقور ومعها أمينة رزق الحزينة دائمًا . وعلى مقربة منهن كانت تجلس صالحة قاصين ممثلا فيها تاريخ الفن كله . هذه السيدة التى فتنت يوما الرجل العبقرى نجيب الريحانى . وعلى مقاعد أخرى كان يجلس عزيز

عيد ومعه زوجته الشابة الصغيرة التى حجب الفن عنها الشيخوخة والدمامة، ومع عزيز عيد وفاطمة رشدى. كان يجلس صديقهما وضيفهما سيد قدرى الذى نكأ الدنيا فلم يتزوج، ولم يعرف له رزقا ثابتا ولا متحركا، ذلك الرجل الذى يظل ساهراً أسبوعا لا يطرق النوم عينيه ولا الطعام بطنه.

وفى ركن منعزل يظل أحمد علام نقيب الممثلين اليوم ينظر فى ساعته فى انتظار صديقته الرشيقة الحلوة الباسمة دائمًا كيكى.

وفى مقهى صغير يقع بين مسرح الإجبسيانة، ومسرح الكسار. كان يجلس مصطفى أمين الممثل الذى اغتنى مرارا وافتقر مرارا، والمؤلف أمين صدقى الذى أغناه الغرور وأفقره أيضًا، قد ترك للسينما بنتا فنانة (لولا صدقى) ومعهما على الكسار البربرى الذى أمل رواده بهذه الشخصية التى لا تتغيَّر، والذى بدأ حياته الفنية فى مقاهى روض الفرج. تلك المقاهى الخشبيّة التى كان النيل يمسح قوائمها الحديدية المقامة عليها، والتى كانت تعج بفنانين وفنانات شارع محمد على، يعرضون عليها فنهم الرخيص الممزوج بالغناء والرقص والمنولوج. وفيهم حسين المليجى ونعمات المليجى. ولهلوبة. وزينب فلفل. والعفشة. وزمبلك. وكانت هذه المقاهى لا تكلف روادها كثيراً، فهى رخيصة الشراب رخيصة رسوم الدخول. وكانت شعبية يتألف قصادها من صغار الموظفين وصغار التجار، وأهل الحرف من الصّناع، وكانت على فقرها حلوة الأمسيات فى الصيف حيث الهواء الرقيق، والمرح المؤنس، فهى مصيف القاهرة الليلى للذين قصرت أيديهم عن النزوح إلى المصايف البحرية.

وفى ميدان التوفيقية كان يقوم بار بافاريا وخلفه بار روسو، وبار ديناليسكا المغربية التى فتنت كثيراً من العشاق، وبار لوللاه.

وكان صاحب بار بافاريا الذى يحتل مكانه الآن عمارة الأوقاف يهوديا عملاقا له زوجة حسناء من أهل رومانيا تجلس على الكيس دائمًا ويجلس تحت أقدامها سانتى الذى ذكرناه . والذى أخرجته الرشوة مطرودًا بعد أن أثرى من هذا السبيل الحرام .

وكان يجلس على البنك من هذا البار : أحمد رامى القاتل الهارب المختفى فى المقابر وهو يزمجر ويسبّ وقد امتلأت خياشيمه بمسحوق الكوكايين . وكان هذا الرجل يشبه الملك فؤادا شبهًا عجيبًا . وقد أرداه إسرافه على نفسه وعلى الناس حيث مات فى سجنه .

وربما طرق هذا البار سليم السلحدار المرعب بحاشيته المؤلَّفة من عصبة إم . فعربد واصطخب وحطم وآذى الناس .

وفى شارع سليمان باشا حيث عمارة أبو رجيلة اليوم نلمّ بنادى السيروس . هذا النادى الذى لا تغلق أبوابه ولا تهدأ ضجته . ففيه من الرقص والمرح والسكر والعربدة والقمار الشىء الكثير .

وقد اتخذ بعض موظفى الحكومة من السادة الإنجليز المتغطرسين بعض غرفه وجعلوه ناديًا لهم . فإذا قادتك النشوة . وأردت أن تأنس بهؤلاء الحمر الوجوه السود الثياب . تحلّقوا دونك وولوك ظهورهم أنفة منهم واستهانة بك وزهدًا فى التعرف إليك .

أم كلثوم تغنى فى كافيه ريش

وفى مقربة من هذا النادى كانت تقع كافيه ريش . مكان قصر الأمير محمد على المُزال . وكانت حمراء الأرض دائمًا . للرمال المفروشة فى حديقتها وكانت ساجية النسيم فى ليالى الصيف . حلوة الجلسة . وربما

أقام أصحابها ليالى غنائية للترفيه. جاءوا فيها بصالح عبد الحى والشيخ أبو العلا أول أستاذ للسيدة أم كلثوم. ثم جاءوا بأم كلثوم نفسها فى أثوابها العربية المتواضعة. ومعها أبوها وأخوها. تنشد بعض التواشيح الساذجة بصوت ينفذ إلى القلب برقته ونقاء معدنه. يبشر بمستقبل عظيم لصاحبته الطفلة الريفية.

وإذا ركبنا الترام الذى يخترق القاهرة منذ اثنين وستين عامًا وأردنا الرواح إلى ميدان المحطة. لقينا هناك كازينو البوسفور القديم الشهرة. حيث كان يسهر هناك المغنى عبد الحى حلمى. الذى طالما أفسد ليالى سهراته بسوء خلقه وعربدته. وربما جرّ على نفسه الضرب من الجمهور لهذا النبوّ فى أخلاقه. فقد ضُرب فى هذا الكازينو فى ليلة من الليالى ضربا موجعًا.

وقد شهد هذا الكازينو: عبد الوهاب يغنى فيه للناس كما شهد السيدة أم كلثوم. وملك. ونعيمة المصرية. وغيرهن من الفنانات والمطربات وقد تحوّل فى هذه السنين الأخيرة إلى صالة للرقص والغناء والمسرحيات الفكاهية التى تتخلّل الرقص وغناء المغنين والمغنيات.

وإذا برحنا البوسفور. وأردنا أن نلم بالبارات الصغيرة التى هى أشبه بالحوانيت منها بالحانات. ذهبنا إلى الفجالة. فوجدنا حانة الحاج مليكة. ذلك القبطى الظريف المتقدّم فى السن، الماجن الذى اختص بتقديم العرقى الأخضر اللون. والذى لا يعلم سرّ تركيب عناصره غيره. فقدم لنا منه بعضًا فى أوانى زجاجية. سمّاها البنورة. ومعها بعض من الفول النابت والترمس وسلطة الطحينة وسمّاها المزة.

وإذا أردت أن تحتسى من الزبيب المحوّج بضع كئوس ذهبت إلى أول شارع الجمهورية وهو قريب منك فهناك بار عزوز الشهير.

الفولى برجير على النمط الباريسى

وإذا مررنا فى شارع عباس (رمسيس) وأردنا أن ندخل فى شارع (عماد الدين) فى أخريات القرن التاسع عشر. ألفينا على يسارنا كباريه (الفولى برجير) وهو على نمط مشوّه من سميّه الملهى الكبير فى باريس. وكان كل فنانى هذا الكباريه من الفرنسيين. وكلّ رواده من أولاد الذوات المتفرنجين ومن الأجانب.

وحيث عرضنا لهذا الضرب من الكباريهات فوجب علينا أن نذهب إلى ضاحيتى الزيتون والهرم. حيث يقوم فيهما ملهيان غربيان فى كل أذواقهما. من خدمة وطعام وشراب. وهما حلمية بالاس[1] فى ضاحية الحلمية فى طريق المرج. والأوبرج فى سبيل الهرم الأكبر. والعادة فى دخولهما: رسوم تدفع فى أوائل الليل حيث يشهد المتفرج الفن الأجنبى فى أرقى صوره من رقص وغناء وموسيقى. حتى إذا انتصف الليل تحوّل هذا الحشد من الأغنياء والمترفين والمتطفّلين إلى رقص المخاصر. الذى يتبعه فى كل دوراته زجاجات الشمبانيا المستنقعة فى أوانى الثلج اللّامعة. وطلبها واجب تقليدى لتحية هؤلاء الراقصات المتهاويات بين صدور هؤلاء السفهاء الظامئين دائمًا إلى المتعة. حتى إذا فرغت جيوبهم قعدوا محسورين ملومين.

وعلى غرار هذين الملهَيين إسكرابيه[1] حيث كان يذهب فاروق وحاشيته. والكيت كات وبيرة الإبراهيمية.

---

(١) أقفل هذا الملهى أبوابه.

بديعة مصابنى تصطاد الدراهم

لعل من أشهر الملاهى الوطنية التى شهدتها القاهرة ولا تزال تشهد بعضها إلى اليوم : ملهى بديعة مصابنى ، تلك المرأة الحازمة المغامرة الطويلة الأنف التى تزوجت يوما من نجيب الريحانى ، والتى كانت تنتقى نساء صالتها للترويح واصطياد الدراهم ، فقد عرفت صالتها حكمت فهمى السمراء الداهية المغامرة التى لفتت إليها القيادة البريطانية إبان حرب سنة ١٩٣٩ . وعرفت تحية كاريوكا البضّة اللّدنة ، الثعبانية الرقصة ، والتى تهافتت عليها السينما وأعجب بها بعض الأمريكان فتزوجها .

وعرفت ببا إبراهيم التى لا تزال تهز بطنها البرونزى وتضحك بفمها الواسع ، وتستروح بأنفها المصرى القديم روائح النفع والاستهواء ، وعرفت ببا عز الدين التى تخرجت فى هذه الصالة ، فقامت تنافسها وتطغى عليها ، حتى ورثتها ثم ماتت بعد ذلك قتيلة فى حادث من حوادث الطيش . وعرفت فتحية محمود البدينة السمراء المنولوجست التى تمثل الجمال السالف الذى كان يعجب الرجال فى القرن الماضى وفى أول هذا القرن والتى تخرجت فيها أيضًا وأصبحت صاحبة صالة تديرها وتشرف عليها خلف سينما ستوديو مصر فى شارع قنطرة الدكة ، وعرفت صفية حلمى التى يخفى سنها قصرها ، فتحسبها فى العشرين من عمرها ، وهى قد جاوزت الأربعين تلك الفتاة الدقيقة الجسم الحلوة البسمة التى تدهش الناس بسيطرتها على صالتيها : الأولى فى مشرب ليبتون القديم فى شارع محمد فريد ، حيث كان

---

(١) كان يقع وراء سينما استوديو مصر .

يجلس عرفى باشا، ومحمد إبراهيم هلال، وعطا حسنى، وشوقى الشاعر.

ولم تزل تتطلع هذه الفتاة حتى جلست فى مكان بديعة مصابنى فى ميدان الأوبرا، وتلك صالتها الثانية حيث كان يفتح الجندى مقهاه فى إبان الحرب العظمى الأولى، وفى هذا المقهى كانت صوفى حبيبة الطلبة وأختها فاتنة الضباط الإنجليز.

وفى الجيزة ضاحية القاهرة الجميلة: يقع مقهى الحمام بأسراره العاطفية ومقهى كازينور بزبائنه الحالمين.

وفى الحديقة[١] التى يفضى إليها كوبرى الجلاء. التى يجلس فى أطرافها كل ليلة من ليالى الصيف: ليلى مراد البديعة الفم الحنونة الصوت وهدى سلطان الطيبة المنظر واللفّاء القوام ومعهما زوجاهما: فطين عبد الوهاب المخرج السعيد بزوجته الحسناء، وفريد شوقى فرنكشتين الشاشة المصرية ومديحة يسرى السمراء الأم وزوجها محمد فوزى الذى هو ملحن أبرع منه مغنيا، وغير ذلك من فنانى المسرح والسينما، وفى هذه الحديقة ملهى كانت تنتقل إليه صفية حلمى فى الصيف، وفى ناحية المنيل يقع: ملهى فونتانا الحديث العهد الفخم بلياليه وأثمانه الغالية.

مقهى الفيشاوى فى قاهرة الفاطميين

فى قاهرة الفاطميين يتألق هذا المقهى العجيب الذائع الشهرة ذو الدهليز الطويل الذى تنتظمه مقاصير صغيرة صفّت فيها موائد لا تعرف

---

(١) احتلت مكانها الآن عمارة لأحد الأمراء السعوديين.

الأناقة ومقاعد تداعى أكثرها، ولكنها محبوبة إلى السائحين من الأجانب الوافدين لمشاهدة سرّ القاهرة القديمة فى أقدم مكان فيها، وهو محبوب أيضًا إلى الفنّانين من النساء والرجال، حيث يشربون الشاى الأخضر والأحمر فى أكوابه الصغيرة، وبراريده الصينية المزخرفة الدقيقة. وترى فيه المتسكعين من الفقراء والباعة والشحاذين.

وفى شهر رمضان تقبل الدنيا على هذا المقهى فهناك تتوافد عليه كل طبقات المجتمع للسهر حتى الصباح، فأصبح اسم مقهى الفيشاوى مقرونا بمدفع الإفطار والسحور.

وفى حريق القاهرة: اندثر بار باريزيانا(١) ثم عاد. ذلك البار الذى تعرفه القاهرة كلها بموائده المصفوفة على الأفاريز المستطيلة، ويعرفه رواده بطعامه وشرابه وباعة الفستق والجنبرى والكفتة المرشوقة فى أسياخها الطويلة والطعمية، وكل السلع الخفيفة، كالعصى والمناديل والجوارب والأبسطة المعروضة على أكتاف باعتها والسبح والمباسم. ومصنوعات خان الخليلى والحمزاوى.

وفى خلف الباريزيانا، كان يقع بار الجلوب بموسيقاه الوترية الطروبة وعازفاتها الأجنبيات الممشوقات فى أثوابهن الزرقاء، وابنة صاحبه المكتنزة الجميلة، التى أفلست بحبائلها الكثير من أولاد الذوات. ذلك البار الذى تحول بعد ذلك إلى ملهى (التبرين) وكان ينافس ملاهى الأوبرج وحلمية بالاس والإسكرابيه.

وفى الطابق العلوى منه: كانت صالة البلياردو الطويلة العريضة المنثور فيها تلك الموائد الخضراء الأنيقة التى لا تمل أكرها البيضاء الرواح والذهاب تحت غمز العصى الطويلة المتكأة على أصابع ماسكيها.

---

(١) فى شارع الألفى بك.

وكان من المتردّدين على تلك الصالة يحيى علمى ابن الذوات ولاعب البلياردو المختار فى مصر وعديل شوقى الشاعر. وفى صحبته الشيخ إبراهيم الدباغ والشيخ أبو العلا أستاذ أم كلثوم وظاهر حقى. وغيرهم من الظرفاء والمغنّين لأن الرجل كان يحب الغناء، وكان حسن الصوت، وفيهم أيضًا: صوصه لاعب البلياردو العالمى. وعباس سيد أحمد الوجيه والموظف الكبير. وحسن عبد الله، وأخوه نجيب عبد الله. وأحمد رامى الشاعر وإن كان لا يباشر اللعب.

نوادى القاهــرة

فى ذلك المكان الظليل الذى تهب عليه نسائم النيل وتحوطه البسط الخضراء السندسية. وتمتد على مداره الأشجار الباسقة الظليلة وفى جوفه الواسع تستبق الجياد فى يوم السبت من كل أسبوع فى فصل الشتاء، ويلعب المترفون بالصوالج على خيولهم المدرَبة. ويقف السادة الأجانب فى سراويلهم التى تشبه سراويل سكان السواحل الوطنيين وفى يدهم عصيهم المعكوفة يقذفون فى حذر ودربة الأكر البيضاء المنداحة إلى الشقوق.

وتجتمع الأرستقراطية والدبلوماسية الأجنبية والمتظاهرون بالنبل والأناقة والنساء الفاتنات من المجتمع الراقى اللواتى تهتف بأسمائهن المجلات. وتقتات من حوادثهن، وغرامهن وزواجهن وطلاقهن أيضًا.

فى ذلك المكان الظليل يقوم نادى(١) أسبورتينج الذى كان حراما على المصريين إلا قلة قليلة آمنت بالأجنبى المحتل. فأدخلها ناديه المقتطع من أخصب أراضى الوطن.

---

(١) اسمه اليوم: نادى الجزيرة.

ولم يزل المعتمد البريطانى . والمندوب السامى ، والسفير الإنجليزى سيد هذا النادى ورئيسه وعميده . لا يرى فيه إلا الأجانب ولا يرضى الدخول لأحد إلا للأجانب وأشباه الأجانب من أفراد بيت محمد على وأبناء الإقطاعيين الچراكسة .

وقد جاهد وزراء العهود كلها فى تمصير هذا النادى ، أو فى السماح لبعض المصريين فى التشريف بعضويّته فلم يفلحوا إلا فى عدد ضئيل ، رأى رئيسه الأخير قبولهم ما داموا على الجادة فى الولاء للراية البريطانية .

وأراد مصطفى النحاس فى محنة القناة سنة ١٩٥١ أن يعصف بهذا النادى فأبى الملك الذى أمضى مرسوم الموت ، واحترقت القاهرة ، فعاش النادى وهبت الثورة ، فإذا بهذه الأرض المنتزعة من أخصب أراضى مصر ، تعود ، وتعود للشعب ، ويلعب فوقها أولاد الفلاحين والعمال ؛ والذوات أيضًا ، وتذهب ريح السفير البريطانى وتقتلعه الثورة .

وهذا نادى السيارات الذى يصطخب بالأناقة والأزياء الباريسية من النساء والرجال ، وتنداح على موائده الخضراء الأموال الموروثة والمسلوبة من جهود هؤلاء البائسين من الفلاحين .

نادى المدارس العليا وثورة ١٩١٩

ونادى المدارس العليا الذى يعرفه المحامون الشيوخ وغير المحامين الشيوخ من مثقفين ، هذا النادى الذى كان النواة الأولى لثورة سنة ١٩١٩ والذى كان عون مصطفى كامل فى جهاده الشاق مع الإنجليز .

وأعضاؤه طالما تعرضوا لخراطيم الماء وعصيّ الشرطة بين عامى ١٩٠٦ و١٩٠٧ وهم يهتفون باسم الدستور فى وجه ركب عباس الثانى .

وفيهم أحمد ماهر والنقراشى وشرارة وغيرهم من طلبة الحقوق والمهندسخانة والمعلمين والطب . وكان يخطبهم مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وعبد اللطيف المكباتى ، ويلهبونهم حماسة واندفاعا للتضحية والتظاهر فى سبيل مصر .

وهذا النادى الأورستقراطى لا يدخله إلا وزير أو شبه وزير يطمع أن يكون وزيرا ، هذا النادى الذى كان محطة الانتظار للوزارة فى العهود السابقة ، ففى قاعاته الفسيحة المرصّعة بالمقاعد المكسوة بالجلد الثمين . كان يجلس عدلى يكن وحسين رشدى وعبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقى ويحيى إبراهيم وإسماعيل سرى ويوسف وهبه . وتوفيق نسيم وحسن نشأت ، ومصطفى فتحى ، ولطفى السيد ، وجعفر والى ، وحسين صبرى ، وحسين سرى . وغيرهم من الصدور عشاق الحكم . ولعب الورق واحتساء الوسكى والتهام الطعام على الطريقة الفرنسية .

وعلى رأس هؤلاء كان يتربع ذلك الأمير الأنيق فى شبابه والملتحى فى شيخوخته ، والذى مات كمدا فى باريس ، والذى كان لا يرى فى مصر إلا مائل الطربوش ، بخيل لا يبذل ماله فى خير ، ولا يساهم فى معروف إلا ما يقتضيه حبه للمحتل من إقامة ناد أو معونة للصليب الأحمر البريطانى وقد زالت دولة نادى محمد على الآن وأصبح شبه مهجور لأنه بات غير ذى موضوع فى حكم مصر وفى تهيئة السادة الوزراء لهذا الحكم .

ولا بد للطبقة الأورستقراطية هذه الطبقة التى تأنف من مخالطة

الشـعـب والجلوس إلى العـامـلين الكادحين، لا بد لهـؤلاء من ناد لا يحفل إلا بأصواتهم الخافتة وأثوابهم الأنيقة والهمس بنزواتهم.

ففى نادى سليمان باشا كان يجتمع هؤلاء بين نقاش تافه ولعب خاسر ومغامرات غرامية واستعلاء مكذوب واحتقار للمنعمين عليهم، وكان خاصًّا بالمنحدرين من العروق الشركسية والأصول التركية، فلا ترى بينهم عـاملا ولا فـلاحـا ولا مـوظفًـا، وقف به حظه عن وكـالة الوزارة مهما كان نابغا نابها ألمعيّا.

أم كلثوم تغنى فى النادى الأهلى

وفى شارع جلال على مقربة من عمارة شوقى الشاعر، كان يسمع العابر أصواتا مهلّلة، ويلمح شبّانا فى سراويل لا تخفى إلا أفخاذهم، ولا تستر سيقانهم، وقد كست صدورهم أردية مخططة ووقف بينهم عملاق أجنبىّ غليظ العنق غليظ العضلات كأنه رجل الغابة طرزان، وهو يمرّن هذا القطيع من الشـبـاب على حـمـل الأثقـال من الحـديد المصمط، ذلك الرجل هو بوكالينى الإيطالى، وهو صاحب هذا النادى الذى كان يجتمع فيه هؤلاء الشباب، والذى كان يتسمى باسمه.

وعلى شاطئ النيل وعلى مقربة من نادى سبورتينج السالف الذكر امتدت ساحات النادى الأهلِى: مدرسة أبطال الكرة فى القاهرة، تلك اللعبة التى دخلت القاهرة مع الاحتلال الإنجليزى، ففيه لعب حسين حجازى. وأمان الأسود. ومرعى. وعلى الحسنى، والسيد أباظة وغيرهم من اللاعبين القدامى والمحدثين. وفوق أبسطته الخضراء كان يمرح فكرى أباظة وسليمان نجيب ومحمد يوسف هؤلاء الكهول الشبّان.

وفى هذا النادى : غنت أم كلثوم فى ليالى حافلة . شهد بعضها فاروق وحاشيته المنافقة .

وقد أقيم لمنافسة هذا النادى : نواد كثيرة . منها نادى الترسانة . ونادى السكة الحديد فى جزيرة بدران . ونادى الترام . ونادى الزمالك . الذى كان يدعى بنادى المختلط . ونادى إمبابة ونادى الجيش فى طريق مصر الجديدة .

ففى هذه النوادى : يتبارى المتبارون بالأرجل والأكتاف والرءوس لتبلغ الكرة هدفها المنصوب .

وفى ذلك الطريق الظليل بين النيل وفرعه فى الزمالك كان يقع نادى القوات المسلحة بأعضائه ذوى الأزرار اللامعة والنجوم والسيوف[١] .

ذلك النادى الذى أبى الذل يوم أراده فاروق على ذلك وعصى وقاوم حتى هبّت منه الشرارة الأولى التى أحرقت العرش المتأرجح بصاحبه .

وفى الضاحية المشيدة على الذّوق البلجيكى : نادى التنس فى مصر الجديدة حيث يقف المتبارون فى أثوابهم البيضاء يقذفون الكرة فى براعة تخونهم أحيانًا فيجهدون هؤلاء الصبية الصغار المترقبين .

وفى هذه الضاحية أيضًا : نادى الهليوليدو . وفيه شتى الألعاب الغربية الدخيلة فى العصر الحديث : مثل التنس . وباسكت بول . (كرة السلة) والكرة الطائرة . واسكواتش راكت . وفى حوضه الواسع يسبح أعضاؤه .

---

(١) انتقل هذا النادى إلى ضاحية مصر الجديدة .

وفى هذه المدينة الجديدة أيضًا : نادى السباق . هذا النادى الذى أفقر الخاصة والعامة .

وفى ضاحية حدائق القبة : يجتمع موظفو تلك المؤسسة البترولية شل . يلعبون ويسبحون فى ناديهم .

ولأغلب الطوائف فى القاهرة : نواد : منها نادى المحامين ، ونادى القضاة ، ونادى المعلمين ، ونادى ضباط البوليس ، ونادى النوبيين ، ونادى السودانيين ، ونادى الموظفين ، ونادى المحامين الشرعيين ، ونادى شرارة ، ونادى البشلاوى ، ونادى الشبان المسلمين ، ونادى الشبان المسيحيين .

ولبعض الجاليات الأجنبية نواد : كنادى المكابى للإيطاليين ، و نادى الإغريق ، ونادى الترف كلوب للإنجليز ، ونادى المعهد البريطانى ، ونادى شركة أسّو للبترول .

وفى القاهرة : نواد أخرى يعرفها روادها وغير روادها وهى كثيرة .

الفنـــادق

عرفت القاهرة من أيام العهد الفاطمى الفنادق . فقد جاء فى التاريخ أن المستنصر الخليفة الفاطمى كان يملك فنادق المدينة كلها .

ولا بد للقاهرة من فنادق فى كل العصور ، فهى الطريق إلى الحج لسكان آسيا وبعض سكان أفريقيا . وهى أيضًا طريق للتجارة . فلا بد للحجاج والتجار من مأوى ولا بد للسائحين المتفرجين من مأوى . ولا بد للغريب من مأوى .

فالفنادق فى القرون الوسطى فى القاهرة كانت على درجات كما هى اليوم على درجات . فالأغنياء من الوافدين فى العصور القديمة : كانوا ينزلون الخانات المؤثثة الغرف حيث يرسلون بدوابهم إلى الإصطبلات . والمتوسطون الثراء كانوا ينزلون فى خانات أقل منها ترفا وراحة . فقد كان هناك خان أبو طاقية . ووكالة الغورى وخان يونس ، وخان سرور . الذى ينسب إلى صلاح الدين وكان عبدًا له .

أما الفقراء : فكانوا يتكدسون فى غرف واسعة أشبه بالمخازن بغير فرش إلا أمتعتهم التى تصحبهم والتى كانوا يفترشونها ويتوسدونها . وربما صحبتهم دوابهم تشاركهم مأواهم . وتسمى هذه الفنادق بالوكالات .

وقد عرفت القاهرة نظام الفنادق الحديثة : فى عهد الاحتلال الفرنسى وعرفت أناقة الفنادق بعد الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢ .

وأشهر الفنادق التى عرفتها القاهرة : فندق شبرد . وكان أشهر فندق فى الشرق الأوسط كله . وقد بلغت شهرته فى أوربا وأمريكا شهرة الأهرامات الثلاثة وأبى الهول .

وقد طالما شاهد هذا الفندق الملوك والأمراء وكبار الأغنياء وأجمل النساء وأنضج العقول . ففى أبهائه الواسعة كان يجلس روزفلت الكبير رئيس الولايات المتحدة الذى زار مصر قبل الحرب العالمية الأولى والملك فيصل ملك العراق ، والملك عبد الله ملك شرق الأردن وملك اليونان ، وملك بلغاريا ، وأمراء البوربون ، وأمراء هابسبورج ، وأمراء هوهنزلرن ومسيو بريان رئيس جمهورية فرنسا ، ومسيو كيلمنصو النمر ، ولويد جورج ، وتشرشل والوزراء العظام والوجهاء من جميع أنحاء أوروبا وآسيا وأمريكا .

وعلى تراسه الفخم كان يجلس الأمراء من بيت محمد على والوزراء المصريون والإقطاعيون ، وكان من رواده الدائمين : حنا باخوم الطويل الضخم الذى اغتنى من أميريه : أحمد باشا وابنه الأمير يوسف كمال .

وكان قبل الحرب الأولى تحتل ركنا من هذا التراس فرقة موسيقية من جيش الاحتلال الإنجليزى لتطرب الجالسين .

وعلى مقربة من هذا الفندق العظيم الذى دمره الحريق الغامض مبعثه سنة ١٩٥٢ ، والذى قام اليوم فى أبهة وروعة بجوار فندق سميراميس .

يقع فندق الكونتينتال ، فى مواجهة حديقة الأزبكية . وكان رواده

من الطبقة الممتازة أيضًا . إلاّ أنه كان دون الفندق الأول وجاهة وشهرة وكانت تغلب عليه الرّوح المصرية . ومن نزلائه الدائمين : أحمد زيوار باشا ، رئيس الوزراء المفرط فى البدانة والطيب القلب والضاحك دائمًا .

وكان عامة حفلات الأحزاب تقام فى هذا الفندق . ففيه كان الوفد يقيم حفلاته والأحرار الدستوريون . وحزب الاتحاد . وقد خطب فيه سعد زغلول وعدلى يكن وحسين رشدى ، وعلى ماهر ، وحسين هيكل وعبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد وغيرهم .

وكان المنحرفون من المصريين يقيمون حفلاتهم فى هذا الفندق أيضًا . فقد أقام مبروك فهمى وصالح للوم ، والسيد عبد الرحيم الدمرداش حفلا للمندوب السامى البريطانى اللورد لويد . وكانوا يصفقون له فى كل مقطع من مقاطيع خطبته . وإن جهلوا لغة الخطبة .

وفى هذا الفندق : انعقد البرلمان المصرى ، وتم فيه شيء عجزت جميع الأمكنة الأخرى عن إتمامه . فقد ائتلفت الأحزاب ، وصافح سعد زغلول محمد محمود ، ورضى عبد العزيز فهمى أن يمد يده إلى مصطفى النحاس باشا .

وفيه أيضًا : كان يجتمع العرب الوافدون لاجتماعات الجامعة العربية من رؤساء وزارات ووزراء وسفراء .

وكان من روّاده الدائمين : حلمى عيسى ، وسيد شكرى الطبيب الوزير الذى مكث وزيرًا أربعا وعشرين ساعة ، وأحمد عاصم مدير دار الكتب المصرية والدكتور حمزة ، وإسماعيل سرى وزير الأشغال الدائم ومحمد عرفى الذى كان يعجبه الحديث إلى السيد حسن الهندى جاسوس دار المندوب السامى ، وعلى الجملة فقد كان هذا الفندق

مجتمعًا للساسة المصريين من جميع الأحزاب حتى هدم سنة ١٩٥٠ وتغير حاله، وأعيد ثانية مقصوص الأجنحة.

وعلى غرار هذين الفندقين: كان فندق سافوى أوتيل فى شارع قصر النيل، واحتل مكانه مكتب لوزارة التجارة ثم أزيل وأقيمت مكانه عمائر بهلر المشهورة اليوم ببواكيها فى الشارع المذكور.

أغا خان نزيل فندق سميراميس

وعلى ضفة النيل الخالد. يجثم ذلك الفندق العظيم المتلألئ الأضواء فى ليالى القاهرة الساحرة.

وكان هذا الفندق يزاحم منذ مدة شبرد فى حياته ويطغى عليه أحيانًا فمكانه أنزه وعمارته أضخم، وغرفه أحسن حالاً وأحفل ترفا. وقد عرف هذا الفندق من الملوك والعظماء الكثير. ففى بعض أجنحته كان ينزل أغا خان ذلك الرجل الأسطورة كل عام مع زوجته الفاتنة. وحاشيته التى تشبه حوارى الرسل فى مظهرها ولكنهم يخالفونهم فى مخبرهم ونوازعهم.

وقد عرف فندق سميراميس ساقيا فى باره الأمريكانى طار صوته فى العالم يخدم فى رقة ويملأ كئوسه فى براعة. ويعرف كيف يتصيّد الدراهم والدنانير من زبائنه.

وفى حديقة السطح من هذا الفندق يجتمع الهوى والشباب والمال والغطرسة فى ليالى ساجية عابثة من ليالى صيف كل عام.

وتحت أقدام الهرم الأكبر تنبسط حديقة واسعة يشرف عليها بناء ضخم يعجب النساء ذوات الخيال المتلفت إلى الماضى. والرجال

المكدودين من صراع المادة الصاخب. لهدوئه وسحر لياليه القمرية المنسكبة أضواؤها على هذا الصرح الهازئ بالزمن المقيم ما أقامت الجبال.

ففي فندق ميناهاوس: تنزل نساء السينما الأمريكيات ورجال المال الأمريكيون. وكل من يستهويه التاريخ فى العالم الغربى والشرقى. على شريطة أن يكون غنيًا.

ومن المعجبين بهذا الفندق من المصريين: مصطفى النحاس وحرمه وعلى ماهر، وكان كثير من الوزراء يلجأون إليه عقب إقالتهم أو استقالتهم فى زمن فاروق للتعزّى والتأسى.

ومن فنادق القاهرة المتوسطة المنزلة: فندق كلاريدج فى شارع ٢٦ يوليو. وفندق جلوريا فى شارع ٢٦ يوليو أيضًا. وفندق إيدن وكارلتن وناسيونال[١] فى شارع سليمان باشا وجراند أوتيل فى شارع ٢٦ يوليو الذى اختنق فيه الزوجان بالغاز مبيد الحشرات، ومات قبلهما الثرى المتهم بالشذوذ مقتولا من شبان طامعين فى ماله. وفندق كابسيس فى شارع رمسيس حيث ينزل فيه متوسطو الحال من السائحين. وفندق كراون ومنيرفا، ونيوأوتيل، وفى شارع نجيب الريحانى كان هناك فندق بريطانيا حيث ينزل عمد الريف فى الوجهين البحرى والقبلى. وفندق الغرب على غراره وشاكلته.

وفى شارع كلوت بك: كانت هناك فنادق بريئة، وغير بريئة، منها فندق محمد على والمنتزه والمقطم والآمال والمنيا والفيوم وغير ذلك.

وفى العتبة الخضراء: فندقان لأوساط الناس من الوطنيين.

---

(١) فى هذا الفندق: كباريه البروكيه وهو ملهى على الطريقة الغربية.

طباخ المتربوليتان

وفى حىّ الحسين من قاهرة الفاطميين. كان هناك فندق البيدق فى أوائل القرن العشرين، وفندق الشرق، ودار السلام الذى كان ينزله الأديب الظريف الأستاذ إبراهيم الدباغ بعد أن أصيب بعينيه، وفندق الكلوب المصرى وفى حىّ نادى محمد على الأرستوقراطى: يقوم فندق متربوليتان، وهو فندق من الدرجة الأولى فى نظافة المسكن والمأكل، وقد اشتهر طباخه بشهرة يعرفها أغا خان وزوجته البيجوم، كلما نزلا مصر كما اشتهرت صالته فى إقامة الحفلات الخصوصية للزواج وغير الزواج، وفى طريق الكورنيش: فندق جزيرة بالاس.

وفى الضاحية البديعة مصر الجديدة: ينتصب فندق مينا هاوس بغرفه العديدة وأبهائه الممتدة ونزلائه الأثرياء من الأجانب.

وفى القاهرة أيضًا هذه الفنادق: أتنلانطيك فى (شارع عماد الدين) وأسكس هاوس (فى ٢٦ يوليو)، وإسكندرية الكبرى فى (البوستة القديمة) وأكس موراندى فى (٢٦ يوليو) والأزهر الشريف فى (ميدان الأزهر) والأمراء (فى شارع الجمهورية) والباب الأخضر فى (ميدان الحسين)، والبرنسات (فى كلوت بك)، والبوسفور، (الأزهر) والعاصمة الكبرى (كلوت بك)، والقاهرة الكبرى، (ميدان الأزهر) والمدينة (كلوت بك) والمنتزه الحسينى (خان جعفر بسيدنا الحسين) النور، (كامل صدقى) الهلال (الخليج الناصرى) الهند الكبرى (سيدنا الحسين) أوبرا بالاس (حارة الشواربى ميدان إبراهيم باشا) أوسبورتن هاوس (طلعت حرب) أولمبيا (الجمهورية) باريز (عدلى باشا) بلازا أوتيل (قصر النيل) بور فؤاد (محمد على) توفيق هاوس (شارع توفيق)

جوردون هاوس (ميدان المحطة) دار السعادة (سيدنا الحسين) ديروز (سليمان باشا) ديانا بالاس (إبراهيم باشا) رضوان (ميدان الأزهر) رويال هاوس (ميدان حليم باشا) ريجينا (إبراهيم باشا) ريش (عبد العزيز) إستراند هاوس (عدلى باشا) سمركوين أوتل (إبراهيم باشا) فرنسا الجديدة (كامل صدقى باشا) فيكتوريا (شارع الجمهورية) قنال السويس (ميدان محمد على الكبير) كارلتون أوتيل (٢٦ يوليو) كينجز (المهدى) كونفرت هاوس (شارع الأنتكخانة) لونابارك (ميدان قنطرة الدكة) مارينا بالاس (إبراهيم باشا) مافيت آستوريا (عماد الدين) مصر (ميدان محمد على) مينرفا (سليمان باشا) نهضة مصر (السلطان شعبان) نوبار الجديدة (ميدان باب الحديد) نيتو كريس (٢٦ يوليو) نيو أوتيل (عدلى باشا) نيو بالاس (شارع دوبريه) نيو سبلنديد (كلوت بك) نيويورك (إبراهيم باشا) هارون الكبرى (نجيب الريحانى) وادى الملوك (حارة الرويعى) وادى النيل الكبرى (ميدان محمد على الكبير) ونتر بالاس (شارع نوبار بحلوان) وندسور للسياح (ألفى بك).

التمثيل فى القاهرة

[1]لم تعرف القاهرة قبل مسرح الأوبرا مسرحا نستطيع أن نقول عليه إنه مسرح يجمع من أسباب المسرح الحديث شيئًا . فقبل هذا المسرح الضخم الذى شاده إسماعيل فى أشهر قليلة للاحتفاء بزواره من ملكات وملوك وأمراء . الوافدين على مصر لمشاهدة الحفل العظيم حفل افتتاح قناة السويس . وقد شيده على عجل حتى قيل إن العمال كانوا يحرقون الآجرّ المطلية به الحيطان بالنار لسرعة الإنجاز .

فقبل هذا المسرح . كانت توجد بعض المسارح التى ينقصها كل شىء يلزم المسرح الحديث تقام بالخشب وبالخيش أحيانًا . لتشهد مضحكات من التمثيل الساذج . فلما أنشئت دار الأوبرا أقبلت على القاهرة الفرق الأجنبية . فأشاعت نوعا من التمثيل الراقى بين فريق من السادة الأغنياء الذين عرفوا الثقافة الغربية وبين فريق من الأجانب المحظوظين لدى أصحاب السمو الخديويين . والمسيطرين على القضاء المصرى والاقتصاد الوطنى .

ولم يكتف الخديو بإقامة دار واحدة للتمثيل للأجانب وأشباه

(١) قد أقام الفرنسيون عند احتلالهم القاهرة مسرحا سموه الكوميدى ، وليس له صفة المسرح الدائم .

الأجانب من المصريين. بل قد أمر أن تقام دار أخرى أطلق عليها اسم (مسرح الكوميدى) تشبيها باسم المسرح الفرنسى الشهير. وتقع مكانها الآن دار البريد فى شارع طاهر.

وأول رواية شهدتها الأوبرا هى رواية مضحك الملك (رجاليتو) وقد لحن أغانيها فيردى الذى لحن بأمر إسماعيل أوبرا عايدة الشهيرة أيضًا وقد شهدت الأوبرا عظمة الممثلين الأجانب أمثال سارة برنار. موتسيللو سوليفان. وكان يعرض فيها أشهر الأوبرات العالمية.

أبو حسن المغفل

وقد تقدم جماعة من إخواننا السوريين للنهوض بالمسرح العربى فى القاهرة. فقد كان المصريون يجهلون هذا الفن ولا يلتفتون إليه. فقد أنشأ سليمان القرداحى مسرحا خشبيا متنقلا. ولكنه كان على شىء غير يسير من الاستعداد الفنى. فكان يلعب فيه بعض روايات شكسبير مثل عطيل وهاملت، وغير ذلك من روايات المسرح الفرنسى. كما أنشأ سليم نقاش ويوسف خياط مسرحين. وكانا يقدمان روايات: أبو حسن المغفل وهارون الرشيد، وأنيس الجليس، والشيخ متلوف، وكانت أدوار النساء يقوم بها الرجال فى ذلك العصر. وكان الذين يقومون بتعريب هذه الروايات للمسرح العربى جماعة من إخواننا اللبنانيين.

وكان إسكندر فرح اللبنانى قد أنشأ له مسرحا فى أول شارع عبد العزيز. ولما كان شعب القاهرة يميل إلى الغناء ويتذوقه رأى إسكندر فرح أن يضمّ إلى جوقه مغنيًا حسن الصوت يلقى بعض الأغانى بين الفصول فى فترة الاستراحة.

وكان فى الإسكندرية رجل معمَّم يحترف غناء الأناشيد فى الأذكار الدينية . فاستقدمه إسكندر فرح وعرض عليه العمل فى فرقته . فقبل الشيخ سلامة حجازى . فأقبل على صوته الحلو النظّارة، وأصبح المسرح الذى كان فارغًا فى أغلب لياليه مملوءًا بالمشاهدين من محبّى الطرب والسماع ..

ولم يلبث الشيخ سلامة أن استقل، وأنشأ له مسرحًا خاصًا يحمل اسمه، فكان أول نواة للمسرح المصرى الصميم، وكان يقدّم روايات الغرام، مثل روميو وجوليت وتسبا، وكان يفتعل فيها أغانى ينظمها له شعراء من السوريين . حتى قصص الدراما العنيفة مثل هاملت وعطيل كان يدس فيها أغانى منظومة ملحنة لإرضاء ذوق الجماهير .

وقد مصر الأدباء السوريون والمصريون بعض الروايات الغربية وحشروا بين تضاعيفها أغانى فكان الجمهور يعجب بهذا الفن المشوّه ويطرب له .

وكان العنصر النسائى فى ذلك الوقت فى تلك المسرحيات : كله من السوريات أمثال إستر شطاح، إميليا ديانا وغيرهما .

وكان لا بد من فصل مضحك فى ختام كل مسرحية للترويح عن الجمهور .

وكان لا بد أيضًا من إلقاء منولوجات تهدف إلى الوعظ الرخيص مثل منولوج فتى العصر ومنولوج فتاة العصر .

ومن الخير التنويه برجال ساهموا فى النهوض بالمسرح العربى فى مصر . أمثال عبد الله النديم الثائر المعروف . ويعقوب صنّوع أبو نضارة، وزرقا اليهودى الصحفى . وإسماعيل عاصم بك .

وقد فشا هذا الضرب من التمثيل الغنائى الذى ابتدعه الشيخ سلامة حجازى. فسار على غراره أحمد الشامى الذى ألف جوقة وجاس بها الأقاليم، ومحمود صبرى. والغندور وغيرهم.

وفى محطة سيدى جابر كان رجل ضخم متمصّر يعمل معاونا فيها كان يحبّ التمثيل ويهوى المسرح.

عبدالوهاب يغنى فى الاستراحة

ويشاء حظه وحظ المسرح المصرى أن يشهد عباس الثانى هذا المعاون يمثل فى فرقة للهواة أمامه فأعجبه، فشاء على بخل فيه أن يبعث بهذا المعاون الضخم إلى الكوميدى فرانسيز فى باريس ليتعلم هناك على نفقته. وينبغ رجل المحطة، ويعود إلى مصر فنانًا كبيرًا، ويمثّل فى أول أمره بالفرنسية ثم يطلب إلى إلياس فيّاض الأديب السورى، فى تعريب المسرحيات الفرنسية الرفيعة، وينتخب خيرة ممثلى الشيخ سلامة حجازى الذى كان قد أصيب بالشلل، وقعد عن المسرح زمنًا طويلاً.

وينضمّ إلى هذه الجوقة الجديدة شاب، يصبح انضمامه يومئذ من البدع، فقد كان حاصلا على ليسانس فى الحقوق، فبدلا أن يتّشح بوشاح النيابة الأخضر أو روب المحاماة الأسود. اتشح برداء نيمور فى مسرحية لويس الحادى عشر.

ويقبل الجمهور على المعاون الممثّل، وتغصّ دار الأوبرا كل ليلة بالنظارة لمشاهدة لويس الحادى عشر وأوديب الملك، والشرف اليابانى وعطيل. وينسى فى غمرة هذا الفن الرفيع تلك القصائد الملحنة الركيكة التى كان يستسيغها ويهفو إليها من صوت الشيخ سلامة الطروب.

ولم يلبث الشاب الحقوقى عبد الرحمن رشدى أن انفصل عن جوقة أستاذه المعاون، وأنشأ له جوقا مستقلا. ضمّ إليه بالترغيب ممثلين من زملائه ونافس أستاذه القديم. ورأى أن يحيى بدعة الغناء فى المسرح. لأنه لم ينس إقبال الجماهير على الطرب؛ فلمح طفلا صغيراً كان يعمل ترزيًا وهو من أسرة عرفت الإنشاد وقراءة القرآن، وكان الطفل حلو الصوت نحيلا مصفراً فساوم أباه عليه. فقبل الشيخ عبد الوهاب أن يبعث بابنه محمد إلى مسرح عبد الرحمن رشدى تلقاء خمسة قروش فى الليلة الواحدة ليغنى فى فترات الاستراحة.

فرأى جورج أبيض أن ينازل خصمه وتلميذه فى هذا الميدان. فجلب هو أيضًا طفلا يافعًا يلوح أصله الريفى فى السمكة الخضراء المنقوشة فى أعلى صدغه.

ويندسّ عبد الله عكاشة وأخواه عبد الحميد عكاشة وزكى عكاشة فى هذا المضمار والثلاثة من خريجى مدرسة الشيخ سلامة حجازى. ولهم أصوات لا بأس بها، ويألفون جوقة. توسطت فنى الشيخ سلامة حجازى وجورج أبيض. فكانت تقدم للجمهور هذين الضربين من الفن المسرحى وكنت ترى زكى عكاشة الذى كان يعتقد جازمًا أنه أجمل فنان فى مصر وهو يغنى مصوبًا فصّ خاتمه الماسى إلى العيون المطلّة من البراقع البيضاء فى بناوير المسرح.

وقد مدّ القدر فى غرور هذا الممثل حين اصطفاه الرجل الاقتصادى الكبير طلعت حرب فأغناه وأرضاه. وبلغ من حبه له أن أنشأ مسرح حديقة الأزبكية ليرضى الفن الذى ينتمى إليه الفنان المزيف.

وكان هناك ممثل سورى اسمه: أمين عطا الله يجرى على منهج إخوان عكاشة.

عزيز عيد يكتشف الريحانى

وكان يعمل بين هذه الفوضى المسرحية رجل فنّان حقًا أحدب طويل الأنف قصير الجرم، يحاول ثم يخفق. وقد لازمه شؤم من هذا الصنف الذى كان يعرف ابن الرومى الشاعر، وقد عاون شذوذ خلقه وجفاء طبعة شؤمه عليه.

فقد كان عزيز عيد يوقن أنه أعظم ممثل وأنبغ مخرج أطلعته الدنيا فكان يلقى عنتًا من زملائه ويلقون منه عنتًا من جراء هذا الوهم المغرور الذى ظل يلازمه حتى مات.

فقد عمل مع الشيخ سلامة فضاق به الشيخ سلامة، وعمل مع جورج أبيض فضاق به جورج أبيض، وعمل معه يوسف وهبى فضاق بيوسف وهبى، وعمل هو مع يوسف وهبى فضاق به يوسف وهبى، وعمل معه نجيب الريحانى فضاق به نجيب الريحانى، وعمل مع نفسه فضاقت به نفسه.

وكان الرجل فنانًا كما قلت. عرف كيف يجيد فن الإخراج. ولكنه فى بعض حالاته كان يطوف به خاطر مجنون. يجعل النظّارة حيرى من الهدف المقصود.

ولعزيز عيد الفضل الأكبر فى تقديم هذه الشخصيّة العظيمة فى المسرح الكوميدى فى الشرق كله: نجيب الريحانى.

فقد ذكر عزيز هذا الكاتب الصغير زميله وزميل أمين صدقى المؤلف الكوميدى، وزميل بشارة واكيم الممثل الكوميدى أيضًا فى البنك الزراعى الذى كانوا يعملون فيه جميعًا كتبة بأجور متواضعة، ذكره

وكان قد أقاله البنك لتراخيه وإهماله عمله. فراح يتسكع فى مقهى بشارع عبد العزيز ولا يجد ما يقتات به.

ذكره عزيز عيد للمسيو ديمو كانجوس اليونانى الأصل الذى كان يعرف من أخلاق المصريين وحديث المصريين أكثر مما يعرفه أبناء باب الشعرية وحىّ المدبح.

والرجل اليونانى تاجر لهو يعرض تجارته للأغنياء فى صالات للرقص وفى مسارح للفكاهة للمغنم والربح.

وكان خبيراً بطبائع شعب القاهرة، وكان يزور أوروبا ويشاهد فى مسارحها فن استعراض النساء مخلوطا بالتمثيل الفكاهى الخفيف التافه.

فما عتم أن دعا عزيز عيد وأمره أن يؤلف فرقة من ممثلى الفكاهة الذين يعرفهم؛ فبادر عزيز عيد وضم إلى الفرقة ثلاثة من معارفه نبغوا جميعًا حتى صاروا طلائع للفن المسرحى فى مصر. وهم زميلاه فى البنك الزراعى: نجيب الريحانى وبشارة واكيم، وفتاة صغيرة كانت التجأت إليه ليعلمها فن التمثيل هى السيدة روز اليوسف.

ونال الثلاثة إعجاب الجمهور بهذا الفن المستحدث المأخوذ عن الذوق الغربى وأبدع أول الثلاثة إبداعا رائعًا، وبدأ يجدّد. فأحدث شخصية كشكش بك. ولكنه اختلف مع الرجل القلق المشئوم، وأبى أن يعمل معه وظاهر ديموكا نجوس الممثل الناجح وأخرج عزيز عيد مطروداً يتسكع فى شارع عماد الدين، وانتقل بصيده الثمين كشكش بك من مسرح الآبيه دى زوز الذى كان يحتل مكان سينما كايرو بالاس، إلى مسرح الآجيبسيانه فى شارع عماد الدين، وكان يجاور سينما استوديو مصر الآن ويحتل مكانه سينما الليدو.

كشكش بك والجميلات الخليعات

وتقبل الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ، ويضيق الناس بجدها الجاثم على الصدور فينفّسون عن أنفسهم فى مسرح آجبسيانه . حيث يستعرض كشكش بك النساء الجميلات الخليعات ، ويخاطبهن بغزل منظوم منغوم يلهب غرائز الرجال ، ويستهوى شغف النساء المضروب عليهن الحجاب .

ويعاون الممثل الناجح المحبوب : اثنان أحدهما عبقرىّ طار صوته وأصبح إماما للموسيقى الحديثة فى الشرق العربى كله .

فكان أمين صدقى يؤلّف المسرحية الاستعراضية ، ويضع نظم أغانيها ، وكان الشيخ سيّد درويش يلحن هذه الأغانى المنظومة التى كانت تذاع على ألسنة أهل القاهرة كلهم . وعلى غير ألسنة أهل القاهرة ، من مدن مصر جميعها .

ويختلف أمين صدقى المؤلف مع كشكش بك الذى كان استقل بالمسرح وجعله خالصًا من ديمو ، ويطلب إليه أن يكون شريكًا له فى الأرباح لا مأجورًا يتقاضى راتبًا شهريًا ، فيأبى نجيب الريحانى . وينسلّ أمين صدقى من مسرح الإجيبسيانه ، ويعثر على ممثل بوهيمى ، كان يجوب طرقات الأزبكية يغنى لروّادها من الأعيان بعض الأغانى الخفيفة فى مجالس خاصة . يتقاضى عليها أجرًا يزيد فى مقداره أريحية سامع . وينقصه بخل سامع آخر ، وتلقفت مدام مارسيل الآنفة ذكرها الرجلين ، وأنشأت لهما فرقة من شذّاذ الفنانين المتسكّعين على مقاهى عماد الدين ؛ فنجح المؤلف والممثل فى ليالى معدودة ، ثم أخفقا بعد ذلك ، وتفرقت الفرقة .

ولكن أمين صدقى الذى كان يذيع بين من يعرفه ومن لم يعرفه أنه موليير عصره، ما لبث أن عثر برجل قصير. كان يتقمص شخصية نوبىّ، ويضحك بها الناس فى مسارح روض الفرج. فاستقدمه أمين صدقى وتعاقد معه شريكا، وعملا فى مسرح الماجستيك. (مكانه الآن سينما بيجال). ونجح الرجلان، وأقبلت الجماهير من العامة على مسرحهما معجبة ببربرى مصر الوحيد على الكسار.

وما زال أمين صدقى بسيد درويش الموسيقى العظيم حتى استماله للعمل فى مسرح الماجستيك.

وتأثر مسرح إجبسيانه بهذه المنافسة، ولم يجده أنه استعان بكامل الخُلعى الملحن المخضرم، وبمؤلف زجال موهوب هو بديع خيرى، وظل المسرحان يعملان: كل لجمهوره حتى انقضت الحرب، وصدف الناس عن هذا الفن الفكاهى، إلا بقايا من العامة كانت يعجبها الاختلاف إلى مسرح البربرى الوحيد الذى اختلف معه أمين صدقى وهجره.

ونجم الرجل المشئوم عزيز عيد مرة أخرى، وألّف فرقة، وعثر على شاب من أبناء الباشوات، كان يمثل فى دار أبيه مع أترابه من الطلبة فى حىّ الماوردى بالمنيرة: شخصية نقولا كارتر البوليس السرى، وشخصية سنكار اللص الشريف. وهما شخصيتان كانتا تنشران كل أسبوع فى كتيبين صغيرين للتسلية.

واعتقد عزيز عيد أنه بتقديمه هذا الشاب الفاشل فى درسه الممثل من منازلهم ابن الباشا لجمهور النظّارة. أنه أحدث حدثا فى المسرح المصرى ولكنه فشل هو وتلميذه الأرستقراطى باللقب، وتسكّع فى شارع عماد الدين كعادته، واحتجب يوسف وهبى، وسنلتقى به بعد قليل.

ويهجر نجيب الريحانى مصر بعد أن أغلق مسرحه، وأضاع ماله الكثير الذى حصله من لياليه الناجحة، ويهاجر إلى البرازيل، وقد تزوج بسيدة راقصة هى بديعة مصابنى الهاربة من الضرائب؛ فيعملان هناك فى التمثيل، ثم يعود نجيب بعد ذلك، ويؤلّف فرقة من ممثليه القدماء الظرفاء، ويشترك معه فى تأليف المسرحيات المؤلف السابق بديع خيرى، ويلعب على مسرح فتنازيو فى الجيزة، ويضطرد نجاحه. ثم ينتقل إلى مسرح رمسيس الذى أخلاه يوسف وهبى، ويبلغ القمة الفنية، ويموت بالتيفود غير معوّض، ويُنصب اسمه على أمرح شارع عرفته القاهرة فى لياليها كلها.

يوسف وهبى يقتل وينتقم

ويعود ابن الذوات باللقب من احتجابه فى إيطاليا التى هاجر إليها بماله الموروث عن أبيه ليتعلم الفن، ويفتتح مسرحًا فخما معدودًا إعدادًا حسنا، ويؤلف فرقة قوية من فلول فرق: عكاشة وجورج أبيض وعبد الرحمن رشدى وينجح. ويطلب إلى بعض الأدباء تعريب المسرحيات العنيفة من الأدب الغربى، لأنه يعجبه فى تمثيله أن يسب ويقتل وينتقم؛ فيرضى بعض النظّارة عن صخب هذا الفن، ففى طبائع بعض الناس حبّ مشاهدة الشجار والملاكمة والصراع.

ويتقدم إلى الممثل العنيف أحد المتمصرين وكان يعمل محاميًا بمسرحية يسمّيها (الذبائح)، كلها قتل وسب وانتقام؛ فيفرح بها الممثل العنيف لكثرة ما فيها من ضحايا، وتنجح المسرحية عند هذه الطبائع من النظارة التى تحب مشاهدة الشجار والملاكمة والصراع.

وتنهال على الممثل المسرحيات من كتاب مخضرمين ومحدثين، وكلها تحمل هذا الطابع الوحشى، فيرد أكثرها مستبقيًا موضوعاتها فى رأسه العبقرىّ ليصبها فى مسرحيات من وضعه هو.

وتذهب ريح هذا الفن العنيف من مسرحيات يوسف وهبى ويذهب معه ماله الموروث والمكتسب، ويقعد ملوما محسورًا، حتى تهىء له السينما حظًّا آخر فيغنى ويظهر من جديد.

وكان أراد أن يدعم فرقته المنهارة بفرقة جورج أبيض التى لم ينفعها قبل ذلك دعمها بفرقة الشيخ سلامة حجازى فينهار الجميع وتختفى من مسارح القاهرة تلك النهضة المسرحية التى كانت قوية فى أول أمرها، والتى عملت معاول المطامع والاختلافات فى هدمها، وتبذل الحكومة جهدًا فى إقامة المسرح المصرى المتداعى، ولكن هذه الجهود تخفق، فإن الفرقة القومية التى أنشأتها وشجعتها لم تغن عن الفن شيئًا، وتضطرب أحوال التمثيل المسرحى بين فرق شعبية وغير شعبية، ولا يزال يكبو ويتعثر حتى اليوم سنة ١٩٥٨ .

وتظهر عزيزة أمير بأول فيلم مصرى سنة ١٩٢٨ وتتابع الأفلام المصرية فينصرف الناس عن المسرح انصرافا تامًا، وتستأثر السينما فى القاهرة بالجمهور، على رغم أنها تتوكأ على عكازتين، وتنظر بعين اللصوص، ولكنها لا تزال تسير، ولا تزال تنظر، ولا يزال الجمهور مقبلا عليها.

المغنـــــون

لم تعرف القاهرة فى عهديها : الأول والوسيط من المغنّين والغناء ما عرفته بغداد وقرطبة ، والعلة واضحة ، هى تزمّت الفاطميين وتظاهرهم بالورع لرواج دعوتهم الشيعية ، وجهل أكثر الأيوبيين وعامة المماليك باللغة العربية وانشغالهم بالحروب الصليبية ومقاومة التتار .

ولا بد للفن من تشجيع ليزدهر ويترعرع ، وهو إن لم يقم عليه : الحكام والمترفون من الأغنياء بالتعهد ، ذبل وصوحت أوراقه وأدركه الموت .

ولا شك أنه كان للشعب فن ، ولكنه كان فنا مرتجلا لا يثبت على دعائم قوية راجحة ، والفن إن لم يرتكز على قواعد ثابتة من العلم والدراسة ، كان لغوا هباء .

ظلّ شعب القاهرة فى أغلب عهوده يلهو بفنون مرتجلة من مواويل وأغان وطبل وزمر ، ولكنه كان فنا متغير الأذواق والعصور واختلافها بين الحرية والكبت ، ولم يعرف من الغناء قبل عبده الحامولى أصولا مرعية قط ، بل كان مزيجًا من الفارسية والتركية مشوّها مشوشًا منقولا عن الأفواه من الجوارى التى كانت تتخم بها قصور المماليك ، ومن

المخنثين من غلمان هؤلاء المماليك أيضًا، فجاء عبده الحمولى فتوغل فى الأصول من الفن التركى، وأخذ عنها وعّربها وجعلها مستساغة، وقرب البشارف التركية والتواشيح الفارسية إلى الأذواق المصرية ووفق فى هذا أبعد توفيق.

محمد عثمان طباخ المغنى

وجاء معه رجل آخر أخذ عنه ولكنه كان أحذق منه وألمع موهبة وهو محمد عثمان، وكان أهل الفن يسمونه طباخ المغنى، ولكن عبده الحامولى كان له صوت جمع كل طبقات الغناء وكان فريدًا فى حلاوته لا يجارى ولا يبارى.

حدثنى الشيخ الحريرى المكفوف وهو شيخ أربى على التسعين، أنه حضر عبده فى ليلة من لياليه، وقد وصل الغاية فى الأداء وجمال الصوت، حتى سلب الجميع عقولهم، وبلغ من سطوته على الآذان أن أحد الحضور انكب على وجهه مغشيًا عليه من الطرب.

ولم يكتف عبده الحامولى ومحمد عثمان عن الأخذ عن التركية والفارسية. بل أخذا عن الفن العربى القديم الذى ظلّ تتداوله الأجيال فى الموصل من العراق. ذكر أحمد نسيم الشاعر وكان صديق عبده وملازمه قال:

«حضر إلى القاهرة أحد فنانى الموصل، وكان فى مقام الأستاذ من عبده الحامولى، وظل يحضر كل حفل يغنى فيه، فلم يستطع المغنى المصرى إلا أن يرجوه أن يريحه من حضور حفلاته، لأنه قد أتعبه وأضناه لأنه لا يستطيع إلا أن يتوخّى كل ضروب الإجادة من توقيع

وأداء ما دام حاضرًا لأنه يفهم الفن صحيحًا مستقيمًا، وهذا يقتضيه عسرًا وجهدًا لا طاقة له بهما».

وكان عبده ومحمد عثمان متنافسين. شأن كل متقاربين فى الفنون وغير الفنون، كانا كجرير والفرزدق، وشوقى وحافظ، وعبد الوهاب وأم كلثوم اليوم، وكان عبده يفضل محمد عثمان بصوته، كما تفضل أم كلثوم عبد الوهاب بصوتها.

هيا إلى منزل الشنتورى

حدثنى عبد الله أباظة رحمه الله قال: مر بى عبده على المقهى راكبًا عربته. فدعانى للركوب معه قائلاً: «هيا معى إلى منزل الشنتورى المغنى لمجاملته فى زواج ابنته حيث سأغنى هناك». قال عبد الله أباظة: فلما أشرفنا على الحفل ألفينا محمد عثمان يغنى، والناس يكادون يخرجون من أثوابهم طربا، فخفت أن يفتضح عبده إذا غنى بعد محمد عثمان فلم أشأ أن أصارحه ولكنى قلت له متسائلاً: أتغنى بعد محمد عثمان؟ فقال: نعم وسأغنى هذا اللحن نفسه، فقلت فى نفسى: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وفرغ محمد عثمان بين التصفيق والضجيج والتهافت والتقبيل، وجاء الشنتورى يدعو عبده للتفضل بالغناء فصعد الرجل التخت، وغنى نفس اللحن؛ فكان والله غناء محمد عثمان إلى جنب غنائه كأنه نقيق الضفادع جنب تطريب الكراون. فلم يلبث محمد عثمان أن أخرجه الغيظ عن الاتزان فصاح مشيرًا إلى عبده قائلا (بقى الراجل ده جاى يجامل والا جاى يموتنى).

وكان عبده لمكانته السامية فى فن الغناء لا يغنى للناس إلا بعد استئذان السراى الخديوية فى ذلك، وبلغ من مكانته الرفيعة أيضًا أن الخديو إسماعيل أوفده إلى إستامبول ليغنى أمام السلطان عبد الحميد. وقد وضع له اللحن المعروف (مليكى أنا عبدك).

وكان هذا الرجل الفنان على حظ وافر من المروءة والبر، وهما خلتان تلازمان دائمًا كبار عباقرة الفنون، فقد كان جوادًا لا يبقى مالا ولا يمسك يده عن معونة.

ذكر بعض معاصريه: أنه كان يعبر يوما زقاقا ضيقا فى مدينة الإسكندرية، فألفى امرأتين تختصمان، لأن إحداهما قد آذت الأخرى برش ماء فى الزقاق لأنها اعتزمت أن تقيم حفلا فقيرًا لابنها فى مساء الغد، فهى تسكن التراب بالماء لتمهيد الأرض لوضع المقاعد الخشبية المتواضعة ولكن الأخرى لم يرضها هذا، فقد صاحت فيها: (يا شيخة هوستينا هو يعنى انتى حاتجيبى عبده، فتقول الأولى (ما يبعدش على الله)، ويسمع الرجل الكريم هذا الحوار؛ فتدفعه الأريحية إلى التقدم نحو المرأة الفقيرة الراجية، ويدفع لها ثلاثين جنيها ذهبًا لتعد العدة، لأنه سيحضر إليها عبده، فتجن المرأة فرحا، وتصدق المحسن، وتضرب سرادقا واسعًا، تحضر له الكراسى الوفيرة.

عبده الحامولى فى باب سدرة

ويجتمع عبده بأصدقائه ودعاته ويعلن: بأنه سيغنى فى المساء فى حىّ باب سدرة، وتعلم الإسكندرية كلها هذا النبأ، ويهرع الناس غنيهم وفقيرهم إلى هذا الحىِّ الفقير من المدينة، ويبر عبده بوعده للمرأة البائسة، وتشهد الإسكندرية ليلة لم تشهد مثلها فى حياتها الطويلة،

وروى الأستاذ قسطندى واضع كتاب (عبده الحامولى) هذه القصة التى تفصح عن نبل هذا الرجل ومروءته قال :

مر عبده الحامولى بسليم سركيس الصحفى فى مقهى إسبلنددبار وجلس معه وقال : أنا منذ الآن تحت أمرك، فاذهب بى إلى حيث تشاء، فقد ملكتك أمرى وليس لأحد سبيل على إلا أنت، وكان الوقت عصراً.

فلم يلبثا إلا يسيراً من الزمن حتى فاجأهما أحد الوزراء، فسلم على عبده وقال : لقد تعبت فى طلبك، وقد بحثت عنك فى كل مكان، فلما لم أجدك حدثتنى نفسى أنك هنا، فالحمد لله لأنى عثرت بك. قال عبده خيراً يا باشا، قال الوزير : الليلة زفاف ابنتى، فأرجو أن تشرفنى فى إحيائها، فقال له : آسف يا باشا لأنى لست ملكا لنفسى، فقد بعتها الليلة من سليم سركيس، فالتفت الوزير إلى سليم وراح يرجوه فى أن يأذن لعبده فى حضور ليلة زفاف ابنته، ويرجو حضوره معه، فرجا سليم عبده فى إجابة سؤال الباشا الوزير.

فلما كان الليل ذهب الاثنان، كما ذهب تخت عبده تحت رأسه الموسيقى الضخم الصالح محمد العقاد القانونجى الذى تزوج من بنت عبده بعد ذلك.

فلما أخذ رجال التخت فى إصلاح آلاتهم الموسيقية، وكان من عادة الموسيقيين فى ذلك العصر تقويم أوتار العيدان والقوانين فى حضور الجمهور إذا بأحد الوزراء من المدعوين، يهمس فى أذن زميله صاحب ليلة الزفاف وكان قد لمح سليم سركيس الذى كان يحمل عليه فى صحيفته ويقول : أنا لا أستطيع المكوث فى حفل مع هذا الرجل سليم سركيس، فقال صاحب الليلة : ولكنه هو الذى جاء بعبده إلى هنا، فأجابه : إذا ظلّ سليم هنا، ذهبت أنا وكان هذا آخر عهدى بك،

فاحتار الوزير ولكنه عزَّ عليه إغضاب زميله، وذهب إلى عبده فى تخته وسارَّه فى استحياء ورجاه أن يصرف سركيس فلم يجبه عبده، الذى التفت إلى محمد العقاد وقال: خيّش يا عقاد، وهذا اصطلاح بين هؤلاء الفنانين (يعنى ضع الآلات فى أكياسها) فصمتت الآلات واندست فى بيوتها، ووجم الناس وكادت تقع كارثة، ونزل عبده وهم بالانصراف، فهرع الوزير إلى الرجل الغاضب لصديقه يرجو ويلتمس ويعتذر، وعبده يأبى ويأبى، فأسرع الوزير إلى سليم، وكان غافلاً عن الأمر كله يرجوه أن يترضى عبده، فعاون سليم فى الرجاء، وعبده يأبى، فلما ألحا عليه وضيقا قال: إنى أقبل المكوث والغناء على شريطة أن يخرج صاحب السعادة الوزير المحتج من السرادق فى الحال؛ فقبل صاحب الليلة، وبادر إلى زميله يطلب إليه فى عنف أن يبرح السرادق فورًا.

وكان لعبده الحامولى صوت ذهبى فاق جميع مغنى عصره وغير عصره، ولعل السيدة أم كلثوم هى الفريدة بين مغنى هذا العصر التى فى صوتها عناصر من صوت هذا الرجل الذى لم تسمع القاهرة فى كل عهودها لصوته شبيها، وربما ارتفع هذا الصوت العلوى الساحر، ففات كل الطبقات المعروفة فى الأصوات، والمحدودة بالآلات الموسيقية.

حدثنى أبى عن الشيخ عثمان زعويل، وكان رجلا فقيرًا طروبا شيخا زهد فى كل شىء إلا فى السماع وقال:

حضر عبده إلى مدينة المنيا، وكان صديقا لنجيب بك (باشمهندس بالمنيا)، فدعاه نجيب بك إلى الغناء فى ليلة مشهودة، وكان عبده يعرف الشيخ عثمان ويبره لفقره، ويحبه لطربه؛ فكان إذا لمحه دعاه إلى

الجلوس معه فى التخت، قال الشيخ عثمان: فغنى عبده وارتفع صوته ثم ارتفع ثم ارتفع حتى فات كل الطبقات المعروفة فى الأصوات، وعجزت الآلات عن إلحاقه، وبقى محلقا لا تلحق به آلة ولا يدركه توقيع؛ فإذا به ينهال على التخت باللعن والسب لتركه فريدًا فى سمائه، فهنا صاح فيه الشيخ عثمان قائلاً: (يا شيخ حرام عليك دول مش قدك أنت رحت فين). وسكت الجمهور، ووقعت الرهبة، ونسى كل ذى نفس نفسه وظلت الحال كذلك بضع دقائق فإذا صائح يصيح: وحدوه، وإذا هذا الجمع الحاشد المسلوب الرشد يصيح فى صوت واحد: لا إله إلا الله، وإذا بعبده يجهش بالبكاء، وإذا بدموعه تجرى على خديه.

وانا نازلة أدلّع أملى القلل

عشق عبده ألمظ التى كانت تعمل فى صدر صباها أجيرة تحمل اللبن والمونة إلى البنائين، وكانت وهى تحمل ثقلها هذا تغنى بصوت. قال عنه المؤرخون: إنه كان من أندى أصوات النساء وأحلاها. ثم عظم شأنها وبعد صيتها حتى أصبح لها من الشهرة ما لأم كلثوم اليوم.

وكان لعبده مدرسة فى الغناء قائمة إلى اليوم، فمن خريجيها المشاهير أحمد حسانين، وإبراهيم اللقانى، والشنتورى، وأحمد عبد البارى، وأحمد فريد، ومحمد السبع، ومحمد سالم العجوز، ويوسف المنيلاوى، وعبد الحى حلمى، وأبو العلا أستاذ أم كلثوم. وصالح عبد الحى وغيرهم.

ويموت الرجل الفريد فقيرًا فى حلوان مريضًا، فلا يجد أهله تجهيزه فيتقدم الشيخ سلامة حجازى ويوسف المنيلاوى يجهزانه، ويحملان

جثته من البيت الذى كان أهداه إليه صديقه باسيلى عريان الذى أنفق فى صحبته مئات الألوف من الجنيهات .

وتتطور الموسيقى بعد ذلك من الفن الشرقى إلى الفن الحديث على يد موسيقار ضخم ، ظل عهدًا طويلاً معمما ثم خرج من جبته وعمامته إلى البدلة الغربية ، وإلى ربطة سوداء كانت تتشبث بعنقه ، كأنها غراب آخذ بمخنقه .

عرف الناس سيد درويش بلحنه الذى ظل يغنيه الجمهور وهو :

(وأنا نازله أدلع أملى القلل) ، وكانوا يتساءلون من هذا المغنى المجدد الإسكندرانى المسلم الذى يذهب صبيحة كل أحد إلى إحدى كنائس الإسكندرية ليسمع الأرغن فيقتبس منه . ثم يصوغ ما يقتبسه ألحانًا مصرية يذيعها بين الناس .

ويحضر الموسيقار الشاب إلى القاهرة ، ويختلف إلى مقاهى عماد الدين ويجلس إلى الممثلين والموسيقين القدامى ، أشباه كامل الخلعى وداود حسنى ويسمع نجيب الريحانى بالوافد الفنان فيمشى إليه ويطلب منه أن يعاونه فى مسرحه إجبسيانه بألحان يصوغها فى الأغانى التى يؤلفها أمين صدقى للمسرحيات التى تقدم للجمهور ، ويقدم إليه مسرحية حمار وحلاوة وكانت مسرحية تزخر بشتى الاستعراض المختلف ، بين فقراء من الأتراك يسألون صدقة لأن الحرب قعدت بينهم عن الرزق والعودة إلى بلادهم ، وبين موظفين استغنت عنهم الحكومة لضيق ميزانيتها ، وبين سعاة بريد يلتمسون حلوانا ، وغير ذلك من مختلف الشئون الاجتماعية ، فأفرغ الرجل عبقريته فى هذه الألوان ، وأعطى كل غرض لونه الخاص وأبدع فى هذا الضرب التصويرى أيما إبداع .

ولهجت القاهرة كلها وتابعتها مدن الأقاليم وقراها بهذه الألحان الساحرة، وطبق اسم سيد درويش الأجواء المصرية كلها.

وتشبث نجيب الريحانى بالملحن الفذ ورفع أجره إلى مائة جنيه فى الشهر وهو رقم لم يعرفه موسيقار قبله، وينفق الموسيقار المتلاف المائة فى أقل من عشرة أيام على أصحابه بين المسحوق الأبيض والدخان الأزرق، وكانت عامة ألحانه يصوغها فى هذه الجلسات المدّوية بالضحك والتنادر والتظاهر بالمحبة والفداء والعناق والقبل التى يوحى بها الدخان ويبعثها المسحوق.

فقاقيع الموجة الجبّارة

وعرف مكان الرجل العبقرى أصحاب المسارح فأقبلت عليه الدنيا، وأقبل عليه الأصدقاء، وأقبل هو فى عنف على الدخان والمسحوق، ويضع محمد تيمور مسرحية العشرة الطيبة ويلحن أغانيها سيد درويش فيبلغ السماء السابعة ويلحق بالخالدين أمثال بيتهوفن وشوبان.

ويستقل عن أصحاب المسارح ويعمل لحسابه، فيزداد دفعة، ويذوى فن عبده الحامولى ومحمد عثمان، ويسرع إلى الموسيقار العظيم جماعة من مغنّى الشباب فيدخلون مدرسته ويتخرجون عليه، ولكنهم كانوا فقاقيع لموجة جبّارة عالية.

ويفتح الطريق لفن جديد يدخله الجميع، ولكنهم يضلّون فيه لأن مشاعلهم دون المشعل الأعظم الذى كان يحمله سيد درويش.

ويموت الموسيقار كما مات قبله كثير من العباقرة الذين أسرفوا على أنفسهم.

ويظن بعض الفقاقيع أن الموجة الجبّارة كانت تستمد دفعها وجبروتها من محيط آخر غير محيطها وأنها كانت عالة على الفن الغربى، فسلكوا طريق ظنهم واحتطبوا حطبًا أجنبيًا وأصرّوا على أنه من غرس أيديهم فخابوا عند الفن الصحيح ونجحوا عند العامة وأشباه العامة لدسهم فى فنهم الهجين المثير للغرائز. ونسوا أن سيد درويش، كان موسيقارًا مصريًا قحًا، ولم يكن يومًا غربيًا ولا شرقيًا وإن كان أستاذًا خرج من نفسه نسيج وحده.

ويظهر بعده وعلى هديه محمد عبد الوهاب، ولكنه لم يبلغ مبلغه أبدًا فى فن الألحان.

وتقوم فى القاهرة مدرستان للغناء، مدرسة أم كلثوم، ومدرسة عبد الوهاب، فكل مغنّ بعد ذلك أو مغنية، فهو أو هى تبع لهذه أو تلك.

وإن كان الإنصاف يقتضينا أن نقول: إن فريد الأطرش وعبد العزيز محمود لهما طريقتهما الخاصّة غير تابعين لهاتين المدرستين.

وفى القاهرة اثنان من الملحنين أحدهما عملاق موصلى، فيه من إبراهيم وإسحاق عناصر فنيّة، والثانى فنان مجيد ولكنه يحجل بين الشرق والغرب ابتغاء الكسب. هما زكريا أحمد ورياض السنباطى، وهناك ثلاثة ينتظرهم غد باسم هم: محمود الشريف والموجى وكمال الطويل.

الحياة الاجتماعية

الأعــراس

حـفـلات الأعـراس بالقـاهرة فى كل عـهـودها تـكاد تـتـشـابه ، فـهـى الخطبة وعقـد القران وجلوة العروس ، ولـكنهـا من القرن التاسع عشر أخذت الأعراس تتخذ ضروبا من الزفاف والاحتفاء لـم تكـن تعرفها فى القرون الأولى من حياة القاهرة .

فالأعراس فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تنقسم إلى ثلاث طبقات : الأولى يحتفى بها أبناء الذوات من الأتراك والجركس المتمصرين ، والمعـروف عند هذه الطبـقة السمـاح للخـاطب فى رؤية خطيبته (هذا فى العهد الماضى ، أما اليوم فقد طبق هذا العرف جميع طبقات المجتمع) فإذا أعجبته تقع المساومة فى الشبكة ثم فى المهر ، والمعروف عند هذه الطبقة : المغـالاة فى المهور وذلك للتنافس بين هذه العائلات الأورستقراطية ، وتكون الشبكة عادة تاجًا من الماس أو عقدًا من الماس أيضًا ، أو أسورة من هذا المعدن .

وفى الفـترة بين الشـبكة وعقـد القـران تـقدم هدايا بين حين وآخر ،

وتكون هذه الهدايا من الفساتين والروائح العطرية العظيمة الثمن والأحذية وعلب من الحلويات الفاخرة.

وفى ليلة الدخلة تتهيأ العروس للزفاف، فإذا كانت العروس تنتمى إلى بيت محمد على أو إلى الحاشية الخديوية. تزف فى عربة يطلق عليها: اسم عربة البرنسيس زينب هانم يسوقها سائق فى حلة من القصب وعن يمينه ويساره اثنان فى مثل ثوبه، وهما الجروم وتجرّ هذه العربة أربعة من الجياد المسكوفى، ويجرى أمامها اثنان فى سروالين قصيرين وعلى رأسيهما طربوشان طويلا الأزرار، وفى أيديهما عصوان طويلان، وأمام الجميع موسيقى السوارى، كما تعزف على أبواب سرادق العرس موسيقى البيادة.

ويغنِّى فى السرادق الذى يكون محتشداً بالذوات، عبده الحامولى أو محمد عثمان، وتزفّ العروس إلى الزوج قبل منتصف الليل بقليل، تزفها الصرفية العالمة الشهيرة فى ذلك العصر، ويكون الزوج قد ارتدى ملابس سوداء (الفراك أو الردنجوت) ويكون قد بلغ مدخل الحرملك من القصر. حيث تكون فى انتظاره العالمة الصرفية والحاضرات من السيدات وعند ظهوره وسعيه إلى الداخل. تلقى عليه البدرة، وهى من الذهب، وتكون عادة من أنصاف الجنيهات أو من أرباعها، ولا تزال تبدر عليه حتى يبلغ الكوشة (وهى مكان مرتفع مزركش مفروش بالحرير والقصب) حيث تكون هناك العروس جالسة. فتنهض لاستقباله ويجلس معها قليلا وبعد فترة يتوجّه الجميع إلى البوفيه المعد للسيدات فيفتتحانه[1].

أما الطبقة الثانية. وهى تنتظم الأغنياء

---

(١) سيأتى فى كتاب حياة البارودى، وصف أوسع لهذه الحفلات.

من الشعب كالتجار وأصحاب الأطيان الزراعية الكثيرة العدد، فالزواج عندها إنما يكون بواسطة الخاطبة التى تعرض ما عندها من أسماء الفتيات وعائلاتهن، فإذا كان للراغب فى الزواج أم أو أخت بعث بها إلى الفتاة لمرآها، فتذهب السيدة فتستجلى الفتاة المنشودة. ثم تعود فتخبر الراغب، فإذا أعجبته أوصافها تقدّم إلى أبيها أو إلى محرم من قرابتها للاتفاق على المهر.

وكان محظوراً عند هذه الطبقة أن يرى الزوج عروسه قبل عقد القران، وكان هناك مساومة على المهر والمغالاة فيه أيضًا كالطبقة الأولى تمامًا، وفى هذه الطبقة لا يعنى الزوج إلا المال والحسب. أما الجمال والعلم فهما غير مرغوبين لذاتهما.

والزفاف فى هذه الطبقة يكون على ليلتين متعاقبتين، ليلة الحنة وليلة الدخلة والأولى فى بيت العروس، والثانية فى بيت الزوج، وكل يحتفل على حسب مقدرته، فقد تزف العروس الصرفية إذا كانت أسرتها واسعة الغنى. أما إذا كانت فوق المتوسط فى الثراء، فتزفها بمبه كشر، وهى عالمة واسعة الشهرة وهى خالة المطربة فتحية أحمد.

وفى الفترة بين الخطبة والزفاف تُقدّم للعروس الهدايا، وعادة تكون من الأطعمة، ولا بد من تقديم السمك فيها، وتزف العروس من هذه الطبقة فى عربة مقفلة تستأجر لذلك (كومبيل) وإذا كانت الأسرة فاحشة الغنى تحب التظاهر استأجرت عربة زينب هانم الآنفة الذكر.

وتتبع العروس المدعوات فى عربات مقفلة أيضًا فى ذهابها إلى بيت الزوج، ولا يراها العابرون فى الطرقات لإحكام الستائر المسدولة على نوافذ العربة، وعند وصولها إلى منزل الزوج يكون هو واقفًا أمام الباب

فيأخذ بيدها وهى محتجبة تمامًا (بالدواق)[١] . وتستقبلها العالمة فى أول السلم مع المدعوات، ويصحبنها إلى الكوشة .

وبعد العشاء فى الصوانى التركية يبدأ الغناء، وعند الساعة الثانية عشرة (نصف الليل)، يزف الزوج أصحابه حيث يلقون القصائد والخطب ثم يصحبونه إلى باب الحريم، وهناك تستقبله العالمة بحاشيتها، وتلقى عليه البدرة، وهى من أرباع الجنيهات الذهبية أو من القطع الفضية الجديدة، حتى يبلغ الكوشة ويستقبل العروس .

وكان المتبع مع هذه العوالم عند هؤلاء الأسر، أنهم لا يدفعون لهن مالا أبدًا، إنما أجورهن يحصلنها من «النقطة» وكن يفرشن وشاحا من الكشمير يتلقين فيه الجنيهات الذهبية من المدعوات اللاتى يعتبرن هذا العمل دينًا مستحقًا لهن عند زواج بناتهن أو أولادهن .

ومن شهيرات هؤلاء العوالم : زنوبة شخلع، وبنتها جميلة وأمينة، وفاطمة العراقية، وأنوس أم نبوية مصطفى الثعبانية الآدمية، وزوبة المتحركة، وخوخه المصرية . ونفوسة عزام .

أما الطبقة الثالثة وهى طبقة أولاد البلد، ومن عادة هذه الطبقة أنها تحتفل أسبوعين قبل ليلة الدخلة، وفى أثناء هذين الأسبوعين . تقام ليال تسمى الضمم وكانوا يضعون موائد من الخشب وحواليها دكك من الخشب أيضًا ويضعون بينهم على الموائد هذه شراب الزبيب أو شراب النبيذ، وفى كل ليلة من هذين الأسبوعين تقام ألعاب . منها أولاد رابية، وهم أسرة عرفت بالألعاب الرياضية وحمل العصى على أنوفهم والكراسى على أسنانهم ومنها خيال الظل .

---

(١) الدواق : خمار أبيض .

ويظل المدعـــوون يتنادرون (بالقــافــيـــة)، ويقـــوم المغنون بدور الصهبجية، أى أنهم يتغنون بمواويل بلدية وتواشيح، ويكون المدعوون غـالبًا من أهل الحـارة أو من الجيـران القـريبين من الحـوارى الأخـرى، ودعوة الجيران إنما هى للاتقاء ودفع الأذى، فإذا هم لم يدعوا إلى أمثال هذه الأعـراس أطبقـوا عليها بعصيهم وبمقاعـد المدعوين وأتلفـوا الزينة وأطفـأوا الأنوار، ولـهـذا كـانت تصـدر المحـافظة أوامـر إلى مـشـايخ الحـارات ليـبلغـوا الأقـسام عن أمثـال هذه الأعـراس لإرسـال قـوة من البوليس لحفظ النظام.

وفى ليلة الدخلة: يصـحب الزوج أصـدقـاؤه إلى الحـمـام العـام، ليغتسلوا جميعًا هناك، وتبدأ زفة العروس بالطبل البلدى ويحرس عربة الزفـاف فتوات حـارة العريس، وتمر الزفة على الحـارات المجاورة وتقف للتحـيـة، وتكون هذه التحـيـة رقص الرجـال بالعـصى، وفى الغالب الأعم لا تمر هذه الزفة بسلام فكثيرًا ما يحدث الشجار. الذى تحدث فيه إصابات بالغة بين شج وكسر.

وبعد دخول العروس منزل الزوج يبدأ زفافه حيث يسير فى الشوارع وحوله باقات الورد ومصابيح الشمع ثم يدخل بالعروس. وفى الصباح يحضر أصدقاء الزوج ومعهم موسيقى بلدية لتحيته.

ومن الفـائدة أن نذكر بعض الفتـوات الذين كـان يخشى بـأسهم فى مـثل هذه الأعـراس وهـم: بلوظة، وعـرابى، وفـتـوة الداودية عـزيزة الفحلة وزمزم، ومحمود الحكيم فى الكحكيين، وحسين الصعيدى فى الحلمـيـة القـديمـة. ودقـدق فى باب الخلق. ومـحـمود الفلكى (وقد قتله مـحـمود الحكيم فى معـركـة) ويوسـف شـهدى فى الأزبكيـة (وقد نفته الحكومة لأنه أجنبى) وأحمد الأسيوطى، وفيتاسيون، ومكين،

وعبد الرحيم صبحى، ومحمد نافع، وخليل بطيخة فى السيدة زينب، وشرف فى المتولى. وكان بعض هؤلاء يصحبون أولاد الذوات للدفاع عن نزواتهم وطيشهم تلقاء أجور ونفقات شراب وفجور.

ليالى الكرنفال

كانت القاهرة تعرف صنفًا من المرح المقنع فى ليال ضاحكة مرحة فاجرة أحيانًا، وقد بطلت هذه الليالى منذ قيام حرب سنة ١٩١٤.

فقبل حلول عيد الفصح عند الغربيين كان الأجانب فى القاهرة وبعض المصريين، يخرجون إلى الشوارع والمقاهى والمسارح، فى أثواب تنكرية، بين تاريخية وعصرية، فيرقصون ويضحكون ويعبثون بالناس.

وكانت تقام فى الفنادق الكبرى. أمثال شبرد والكونتنتال وهليوبوليس بالاس، حفلات تنكرية يمتزج فيها الجميع وهم مقنعون فيتعانقون ويرقصون ويتغازلون من غير أن يعرف بعضهم بعضا، فربما لمح رجل متنكر امرأة متنكرة فأعجبه قوامها أو صدرها، أو غير ذلك من جسمها فتأثرها وغازلها، فإذا استجابت له رفع قناعها فوجدها قبيحة عجوزًا، وقد يزهد أحد هؤلاء المتنكرين فى امرأة أخرى، أنكر منها زيها أو شيئًا آخر فإذا هى حسناء فائقة الجمال، وكانت تحدث فى هذه الليالى مآس عائلية كثيرة تنطوى على الطلاق أو الهجر أو القتل أحيانًا.

وكان محرمًا على أى أحد من المارة فى الشوارع أن يرفع حجابًا لمتنكر فإذا فعل ساقه البوليس إلى المخفر حيث يعاقب هناك.

وكانت تعمل مدرجات حول حديقة الأزبكية وكانت تؤجر للنظارة وكان كل مشاهد من هؤلاء النظارة يحمل كيسًا فيه فاصوليا وآخر فيه ورق ملون، ومعه جاروف صغير. فإذا بدأ مركب الكرنفال فى المسير حول الحديقة، وكان ذلك يكون بين الساعة العاشرة صباحًا والغروب بادر المتفرجون فى عبث وصخب ينثرون على ركب هؤلاء المتنكرين قطع الفاصوليا ويلقون عليهم الأوراق الملونة حتى تغمرهم. والكل فى جزل صبيانى وعبث مجنون.

وفى المساء يقصد بعضهم إلى حديقة الأزبكية حيث يلهون تحت الظلال الملفوفة بالظلام فى لهو برىء وغير برىء، ويقصد البعض الآخر إلى البارات والكباريهات للهو والسكر والعربدة.

حياة القاهرة النيابية

لم تعرف القاهرة حياة نيابية صحيحة فى كل أطوارها ، إلا ما يبشر به الدستور الجديد الصادر فى شهر يناير سنة ١٩٥٦ ، والذى سيتغير بآخر يرمز للدولة العربية فلم يكن فى العهد الفاطمى حياة نيابية قط . بل كان حكما استبداديًا يباشره الخليفة إذا كان قويًا ، أو يباشره الوزراء إذا كان الخليفة ضعيفًا ، كذلك العهد الأيوبى . والعهد المملوكى والعثمانى .

وجاء محمد على فأنشأ المجلس العالى ، وكان ينتظم ٢٤ مأمورًا للمشاورة وليس لهم رأى إنما هم موظفون لا يقولون إلا ما يقوله الوالى

ثم أخذ محمد على فى توسيع هذا المجلس فأمر أن يكون أعضاء هذا المجلس ٩٩ ينتخبون عن القرى و٢٣ يعينون من قبل الوالى ، و٤ من مأمورى المراكز فى الأقاليم ، وجعل لكل عضو راتبًا مقداره ١٥٠٠ قرش . وثلاث وجبات من الطعام طيلة انعقاد المجلس ، ومدة انعقاده : شهران ، ولكن محمد على لم يلبث أن ألغى هذا المجلس الوهمى ، وكان مكان انعقاده بالقصر العالى (جاردن سيتى) .

وظلت القاهرة لا تعرف برلمانا فى عهود إبراهيم وعباس الأول

وسعيد حتى جاء إسماعيل، فرأى أن يقيم برلمانا وهميًا تأسيًا ببعض ممالك أوروبا التى كان يهيم بتقليدها، والسير وراءها؛ فأنشأ شورى النواب، وقد حسب إسماعيل أن عهد جده محمد على لا يزال ماثلا فى الطاعة للولاة. . وأن المجلس الجديد لا يكون إلا كما كان مجلس جده العالى.

ولكنه أخطأ، فقد برز له فى هذا المجلس البالغ أعضاؤه ٧٥ عضواً كلهم منتخبون، رجال أحرار يقاومون عسفه ويناهضون استبداده، فلما أراد الخلاص من هذا المجلس أصدر دكريتو عام ١٨٧٩ بحله، ولكن النواب وقفوا لهذا الدكريتو موقف ميرابو فى ملعب التنس عندما جاء رسول الملك لويس السادس عشر.

الاحتلال ونهاية الحياة النيابية

وقد نجح شريف باشا الرجل الحر فى إعادة المجلس، وظل يتجاذبه استبداد إسماعيل وغباء توفيق، وقد مكث ثلاثة عشر عامًا بين أعاصير أهواء بيت محمد على، والوزراء الأتراك، وقضى على هذا المجلس قضاء مبرما عند دخول المحتل سنة ١٨٨٢.

ويوعز الإنجليز إلى توفيق فى إقامة ثلاثة مجالس، وهى أشبه بمجلس الدوما فى عهد قياصرة الروس، وهى: الجمعية العمومية، ومجلس المديريات ومجلس شورى القوانين، وكأنها مجالس قد أقيمت للزينة فقط.

وأهم هذه المجالس: مجلس شورى القوانين، وكان يؤلف من ٣٠ عضواً فقط ١٤ منهم معينون. . و١٦ منتخبون، وكانت الجمعية

العمومية التى تشرف على المجلسين الآخرين . تؤلف من ٨٤ عضواً . والنظار الثمانية وأعضاء مجلس شورى القوانين، و٤٦ عضواً منتخبًا . ولكن هذه المهزلة لم تلبث أن انفضت سنة ١٩١٢ .

ورأى الخديو عباس كما رأى الإنجليز أن الوعى القومى قد نشط ، وأن عهد مصطفى كامل قد أيقظ فى الشعب الحرية ، فمنح الشعب الجمعية التشريعية ، وهى أوسع مدى وأبعد أفقًا من مجلس شورى القوانين ، وهى أقرب إلى البرلمان منها من مجالس الشورى السابقة .

وقد انتظمت هذه الجمعية التشريعية الثمانية النظار ، وسبعة عشر عضواً معينًا وستة وستين عضواً منتخبًا ، منهم الوكيل الثانى . أما الرئيس والوكيل الأول ، فهما معينان ، وكانا أحمد مظلوم باشا وعدلى يكن باشا ، وكان سعد زغلول الوكيل المنتخب ، وقد برز بمواقفه الوطنية فى هذه الجمعية التى لم يقدر لها البقاء إلا أشهراً قليلة لقيام الحرب سنة ١٩١٤ ، وإن ظلت قائمة رسميًا .

وظلت القاهرة ترزح تحت حكم الإنجليز والسراى والوزارة ، فلا سائلا ولا مسئولا ، حتى هبت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وهب الشعب لاستقلاله وحريته . ورضخ الإنجليز وظفرت مصر باستقلال منقوص . فأقيم البرلمان المصرى منحة من الملك فؤاد فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ . وذهب الملك لافتتاح المجلس المؤلف من الشيوخ والنواب ، ومجلس الشيوخ يتألف من ١٤٧ عضواً يعين الملك خمسهم وينتخب الشعب الباقين ويتألف مجلس النواب من ٢٦٤ عضواً منتخبين من الشعب .

ولم يؤد مجلس النواب هذا رسالته كاملة قط ، فقد كان يرزح تحت ثقل الحزبية ، ويتوجه حيث يتوجه زعيم الأغلبية فيه ، وكان الإنجليز

يرقبون نقاشه، فإذا أنسوا فيه ما يمس سلطانهم. برزوا وهددوا واحتجوا بالأسطول، كما فعل لورد لويد المندوب السامى البريطانى.

الجهلاء يصلون بأموالهم إلى البرلمان

وقد تعرض هذا المجلس لأعاصير الاستبداد فى كثير من أدواره، فقد عطله زيوار باشا رئيس مجلس الوزراء سنة نزولا على رغبة الإنجليز والملك فؤاد.

وقد حدث أن بعض دوراته لم تقم إلا ساعات قلائل، وذلك لأن رأى الأمة جاء مخالفًا لرأى السراى.

ثم جاء محمد محمود باشا، فاستصدر عام ١٩٢٨ مرسومًا بوقفه ثلاث سنوات ومعه الدستور أيضًا، ولكنه لم يستوف مدة حبسه، فقد عاد ثانية سنة ١٩٢٩.

وظل يحجل بين رضى السراى والإنجليز وسخطهما، حتى جاء رجل جرىء لا يبالى بالشعب ولا يعرف إلا ما يعتقده هو، فقضى على الدستور والمجلسين، وأقام هو دستورًا جديدًا ضيقًا وبرلمانا يعرف معنى الطاعة. وكان أقرب للجمعية التشريعية المنقرضة منه إلى البرلمان الزائل.

ولكن الشعب الذى جاهد وضحى وخاصم الإنجليز والطغاة من حكامه، أبى دستور إسماعيل صدقى، وبرلمان إسماعيل صدقى المستحدثين، وظل يقاوم ويبذل من دمائه وماله الكثير. حتى عاد الدستور القديم والبرلمان القديم، ولكنهما عادا لمنفعة الحزبية ولتأييد المطامع والشهوات فقد كان هؤلاء النواب الذين خدعوا الشعب

لانتخابهم. أداة فساد ورشوة واستغلال مصر لهم وحدهم للثراء والنفوذ وقضاء الحاجات لهم ولمن يلوذ بهم ولمن يدفع الثمن.

وصار كل حزب له الأغلبية فى هذا المجلس المنكود الحظ يحكم كما يشاء هو لا كما تشاء مصر، وقد سانده هذا القطيع المنتفع المستغل المسمى بالنواب المحترمين.

وكان الوصول إلى مقاعده ميسوراً لمن معه مال، حتى لو كان من أجهل الجهلاء وأغبى الأغبياء، وكان المال المدفوع يتقاضاه باذله أضعافًا مضاعفة عند الجلوس على المقعد الجلدى الوثير، يتقاضاه من حاجات المضطر وشهوات الطامع وطالب العمل.

وكان الوصول إلى مقاعده ميسوراً أيضًا لكل صعلوك هتاف يسجد للزعامة المقدسة، ويعرف كيف ينحنى وكيف يتظاهر وكيف يسير فى الركاب وظل هذا الباطل المستحدث من الحق يفسد الضمائر ويلعب بالرجال ويبث العداوات ويقطع الأرحام وينهك الوطن ويسيء إلى مصر حتى زال سنة ١٩٥٢، وفى يناير سنة ١٩٥٦ بشر قائد الثورة جمال عبد الناصر بدستور جديد ينتظم رغائب الشعب كلها وهو مرجو الخير إن شاء الله، وقام مجلس الأمة منذ يوليو عام ١٩٥٧.

ثوراتهـــا

عرفت القاهرة فى حياتها الطويلة ثورات عديدة؛ فهى لم تخضع للأجنبى ولم ترض بالذل إلا ريثما تستعد لدفعه ومقاومته.

فقد عرفت الثورة العسكرية فى العهد الفاطمى وسيأتى ذكرها فى القسم الثالث، وعرفت الثورة المدنية فى عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين وبيت محمد على، ولكنها كانت ثورات ينقصها الأهبة، ويعوزها السلاح والقيادة الحازمة، فكم شهد ميدان الرميلة. (ميدان قلعة صلاح الدين) من رءوس معلقة وأرجل تتأرجح فى الهواء فى أعواد المشانق لثوار هبوا لدفع الظلم، ولكن الظلم كان أقوى منهم وأوفى عدة، فلذلك كان ينتصر دائمًا، وتنطفئ الثورة. حتى تشب مرة أخرى.

ولم تشهد القاهرة أعنف من أربع ثورات. الأولى: الثورة على جيش نابليون الغازى. والثانية: الثورة العرابية. والثالثة: ثورة ١٩١٩. والرابعة: ثورة الجيش عام ١٩٥٢. منهما ثورتان عسكريتان وأخريان مدنيتان.

وقد أثرت هذه الثورات الأربع فى مصير القاهرة تأثيرًا بعيدًا.

فالثورة الأولى : أزالت عهود المماليك وعجلت فى طرد الفرنسيين، ومكنت لأهل القاهرة من الوثوب على الدولة العثمانية الجاثمة فى أفنية القلعة من مئات السنين، فقد دفع الشعب النجاح فيها إلى الخلاص من هؤلاء الولاة الأعاجم بثورة أخرى أطاحت بهم وجاءت بذلك الألبانى الوحشى النظرة، فمكث هو وأبناؤه قرابة مائة وخمسين عامًا، حتى أطاحت بهم ثورة أخرى.

وكان الفضل الأكبر فى إثارة الثورة الأولى يرجع للأزهر، فهو الذى هيأ الشعب للثورة، رغم تقرب نابليون لهذا الشعب وتمسحه بالدين الإسلامى. وحمله الثقافة الفرنسية الرفيعة إلى القاهرة.

ولكن الأزهر الذى كان يغضب للدين والدنيا معًا، والذى قبل تقرب نابليون حينًا من الزمان، عاد فرفض هذا التقرب، وفطن لهذا الدجل البونابارتى، وكان سلطان الدين فى هذا العصر قويًا، ولم يألف شعب القاهرة الإسلامى الاستعمار المسيحى، وكان من الذلة ومن الكفر : الخضوع لحاكم من غير ملته.

وقد كانت وطأة الفرنسيين أخف من ثقل الدولة العثمانية، ولكن الشعب كانت ترضيه المظاهر. عندما يرى حاكمًا يحضر الجمع فى المساجد الجامعة ويراه يصوم رمضان، فهو من دينه وإن كان يسومه الخسف.

عرابى يرفض الاستبداد بالمصريين

ولكن الفرنسيين كانوا يختلفون تمامًا، فصلاتهم فى الكنائس، وطعامهم لحم الخنزير الحرام فى الإسلام، وشرابهم الخمر التى هى أم الكبائر عند المسلمين، فكانت الثورة عليهم ثورة الإسلام على

المسيحيين؛ فالموت فيها استشهاد فى عرفهم، ولذلك هبوا كلهم لطرد الأجنبى المسيحى تحت قيادة شيوخ الأزهر. كالسيد عمر مكرم الذى ألب الشعب المصرى عليهم، كما ألب بعد ذلك على الولاة العثمانيين وغيره من علماء هذه الجامعة القديمة، وكانوا عونًا للجيش التركى المبعوث لطرد هؤلاء الفرنسيين. ولم يستطع الجيش الفرنسى البقاء فى هذا الأتون المضطرم بنار التعصب الدينى والوطنى، هذا التعصب الذى أطاح بقائدهم كليبر، وجرعه الموت حتى أصبح الجيش الفرنسى يغضب على قائده الجديد مينو الذى خلف كليبر لأنه أراد البقاء وضم مصر إلى الجمهورية الفرنسية.

وانتصرت الثورة فى طرد الفرنسيين وإن كانت قد استرجعت ظالمى الشعب من الأتراك العثمانيين، التى لم تمهلهم إلا قليلا حتى ثارت عليهم أيضًا وأقامت نظامًا لقيت منه كثيرًا من الويلات، وإن كان الشعب قد عرف فيه بعض الاستقرار واستراح قليلا من هذه القوى المتنازعة من العثمانيين والمماليك والولاة.

وتغيرت الحال واستقام فى القاهرة لون آخر من الحكم فى رجل ارتضاه الشعب المنهوك تحت طحن القوى المتنازعة، ولكنه كان قد أخطأ الاختيار، فالسلطة والمال والنفوذ فى أياد أجنبية، وليس للمصريين إلا السوط والسخرة والفتات المتساقطة من موائد الأتراك والألبان والجركس.

ويستبد الرجل المختار من الشعب بالأمر وحده، ويسلب الفلاح أراضيه، وينهج على نهجه خلفاؤه، ويضيق الشعب ثم يضج ثم تضطرم صدور بعض أبنائه، من العسكريين، فتهب الثورة الثانية بقيادة أحمد عرابى: الضابط الفلاح الشرقاوى.

يرى أحمد عرابى استبداد السادة والعبيد بالحكم، وبالجيش وبالنفوذ دون المصريين، فالأتراك والألبان والجركس لهم المناصب العالية فى الجيش وغير الجيش، ويساند عرابى نفر من إخوانه الضباط، ويتقدمون إلى الخديو الضعيف، الذى أورثه أبوه أثقالا من الإسراف والفوضى والديون: المساواة فى الرتب بين المصريين والأجانب. وقد عرف الجيش القوة قبل ذلك، وعرف له الولاة والوزراء الخطر فى الوثوب.

عرف له نوبار وثوبه ولكمه وضربه، يوم اختير رئيسًا للوزارة فى عهد إسماعيل، وقد تأخرت عن الضباط مرتباتهم عدة أشهر، وعرف له إسماعيل تلك القوة الكامنة والتى كان يريد استغلالها فى المقاومة يوم عزله، ولكنه خذله.

ولم يسمع توفيق لهذه الالتماسات، ولم يقرها، ورأى أن يركب رأسه، واستمع للنصيحة الأجنبية التى كانت تبيت أمرًا لمصر، وتعد العدة لاحتلالها وحيازتها بعد شق القناة الطريق القريب إلى الهند ألمع جوهرة فى تاج فيكتوريا الملكة السعيدة الحظ.

ولم يكتف الخديو الأحمق بالإهمال واحتقار المطالب العادلة، بل أمر بالعقاب، ولم يكن عرابى وأصحابه سذجًا، كما قدر ذلك الخديو الغافل، بل كانوا أبعد فطنة منه، فقد عرفوا المكر التركى واستعدوا له.

فعند ذهابهم إلى رياض باشا ناظر النظار، وتهديده لهم، أجمعوا أمرهم على حذر، واجتمع مجلس النظار المؤلف من وزراء أتراك وشركس لمعاقبة عرابى وصاحبيه: على فهمى وعبد العال حلمى، وأمر بالقبض عليهم ومحاكماتهم عسكريًا.

وتعهد ذلك الشركسى الضيق الأفق البليد الذهن : عثمان رفقى ناظر الحربية علة العلل، تعهد لهؤلاء النظار، بالقبض على الضباط وتقديمهم للعقاب، ووجد الوسيلة فى الغدر عند استقدام هؤلاء الثلاثة إلى قصر النيل للتظاهر بالتشاور فى شأن زفاف الأميرة جميلة شقيقة الخديو، وقدر أنهم إذا دخلوا عرين الأسد استطاع القبض عليهم.

وأحس عرابى وصاحباه بالمكيدة، فأعدوا العدة لإحباطها.

وأقاموا آلايًا من الحرس، بثكنات الحرس بميدان عابدين، وصحت هواجس الثلاثة، فقد أمر الشركسى الغبى بالقبض على الثلاثة، وهرع الحرس لنجدتهم، ووقعت الوحشة بين الجيش والخديو.

وخضع الخديو فى أول الأمر لمنطق الثورة، ولكنه لم يلبث أن عاوده خداع أسرته فنقض ما أبرمه الجيش معه.

وطار صوت عرابى فى الأمة وأقاموه زعيما وطنيًا، وشجعته هذه الثقة، فبرز إلى الخديو فى قوة أمنع من القوة الأولى، وتحد فاق سالفه.

وانخدع قلب الخديو

ففى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ حضرت جميع الآلايات الموجودة فى القاهرة وضواحيها بسلاحها، واصطف الضباط والجنود، انخدع قلب الخديو وخال أنه إذا نزل الميدان ووقف بين هؤلاء الجنود الفلاحين الذين ضربت آباؤهم بسياط بيت محمد على، فإنهم لا يلبثون أن يهتفوا له ويطيعوا ويتفرقوا، ويبوء عرابى وأصحابه بالإخفاق، ولكنه خاب فأله، فقد ثبتت الجنود تحت قيادة الفلاحين من ضباطهم، ووقف ذلك العملاق الطويل الوجه، المصرى القُحّ أمام الألبانى الحاكم الملتحى،

ويسأل الألبانى المصرى عن حضوره مع الجيش إلى الميدان، فيجيب المصرى الشجاع: لنا طلبات لا بد من إجابتها، فيتجاهل الألبانى ويستفهم، فيعيدها المصرى على المسامع التى آثرت الصمم قبل ذلك، ويزيد فى مطالبه: عزل رئيس الوزراء التركى رياض وإعادة مجلس النواب إلى الأمة. فيرجع إلى الجبان كبرياء آبائه، ويرفض ويقول: هل أنتم إلا عبيد إحساننا، فيجيبه الفلاح الشجاع: نحن لسنا عبيداً ولا نورث بعد اليوم.

واشتد الجدل، وخاف القنصل الأجنبى أن يقتل الفلاح الألبانى، فنصحه بالانزواء واللجوء إلى السراى، واشتدت الأزمة ورضخ الخديو لمطالب الفلاحين لأول مرة، منذ تولى جده المجنون حكم مصر.

وتولى شريف باشا رياسة الوزراء باختيار العرابيين، وأعاد الرجل إلى الأمة مجلس النواب، وسار فى طريق الاعتدال والرفق، ولكن عرابى بمشورة محمود سامى البارودى[1] الشاعر الأشهر، والذى كان وزيراً للحربية فى وزارة شريف، أبى هذا الاعتدال وذلك الرفق ووسوس إلى العرابيين، فأحرجوا شريفًا حتى استقال، وخلفه البارودى الطامع فى هذا المنصب.

وزادت الهوة بين الوزارة التى كان أحمد عرابى وزيرًا للحربية فيها، والذى كان له الأمر كله فى توجيهها، وبين الخديو توفيق، وقد نجمت مؤامرة من الضباط الجركس المسلوبى الامتيازات والسلطة، والذين أصبحوا تحت قيادة أحمد عرابى الفلاح المصرى، فأحس عرابى بها وأراد معاقبة مدبريها بأشد عقوبة، ولكن الخديو أبى أن يصدق على

---

(١) ستذكر هذه الثورة بإسهاب فى كتاب «حياة البارودى».

هذه العقوبة، فشجر الخلاف بين الوزارة العرابية والحاكم الألبانى، وكادت تقع كارثة، ولكن العرابيين تساهلوا فى تشديد العقوبة وجنحوا إلى اللين، فسارت السفينة فى طريقها، ولكن الأعاصير كانت تتجمع من قريب لإغراقها.

وترقب دولتا الاستعمار: إنجلترا وفرنسا الحالة، وتظهر خفاياهما رويدًا رويدًا، ويرسلان أسطولا بحريًا بدعوى حماية الأجانب، ويمثلان قصة الذئب والحمل، ويدعيان أن المصريين مُفْتَاتون، وتبعث تركيا المنهوكة ضعفًا برسول من عندها، ليرجع الأساطيل الأجنبية إلى مرافئها، ويوجب على عرابى وأصحابه الطاعة، وتبقى مصر تابعة خاضعة للدولة العليا، فلم يصنع شيئًا غير حضور المآدب الخديوية الفخمة والتذبذب بين العرابيّين وتوفيق.

ويستقيل البارودى خشية العاقبة وتضطرب الأمور ويعمل الذئب الإنجليزى على التحرش بالحمل المصرى، ويفلت الخديو فجأة من قبضة الجيش فى القاهرة. ويلجأ إلى الإسكندرية قريبًا من الأسطول لحمايته عند الحاجة إلى هذه الحماية.

النفى إلى جزيرة سيلان بديلا عن الإعدام

ويتذرع الذئب الإنجليزى بقصة ذلك المالطى الذى أبى أن يدفع أجر المكارى، فكان جزاؤه القتل من رجل وطنى يهضمه أجنبى قذر حقّه، ويتذرّع أيضًا بترميم الحصون فيضرب الإسكندرية فى يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ فيدكها دكا بعد أن أجلى عنها سكانها من الأجانب.

وتحترق الإسكندرية، وينبرى الجيش تحت قيادة عرابى للدفاع عن الوطن، ويتقهقر من الإسكندرية إلى كفر الدوار ويتخذها معقلا.

ويحتال الذئب الخادع على شريكه فى الاستعمار حتى يتركه وحده للفوز بالحمل، ويعلن عرابى خلع الخديو، ويسوق الجنود والمعدات إلى كفر الدوار لصدّ المغير، ويعلن الخديو عصيان عرابى، كما يعلن ذلك سلطان تركيا الموسوس عبد الحميد.

ويقيم عرابى الاستحكامات فى معسكره بكفر الدوار، ويناوشه الإنجليز، فيجدونه صلب العود، فيستنجدون بلندن لإسعافهم بمدد وفير، ويعجز الإنجليز عن اختراق خطوط عرابى فى كفر الدوار، فيتسلّلون إليه فى مأمنه حتى يهزموه.

فقد أشار محمود فهمى باشا، وكان مهندسًا قديرًا على عرابى أن يغرق القناة حتى لا ينفذ الإنجليز منها إلى الميدان الشرقى، حيث كانت هناك قوة قليلة العدد معسكرة فى التل الكبير فيأبى عرابى الاستماع إليه، ويسمع لديلسبس الفرنسى الأفّاق الذى يعطيه موثقا خادعًا بأن الإنجليز لن تمس القناة ولن تتخذها معبرًا إلى الميدان الشرقى.

وينحدر الإنجليز إلى القناة بقوتهم الكبرى. ويدهمون القوة الضعيفة المعسكرة فى التل الكبير، ويوهمون عرابى أنهم سيهاجمونه فى الميدان الغربى من كفر الدوار ويحاول سد الثغرة المتدفق منها المدد الإنجليزى فى الميدان الشرقى ولكنه يعجز لصعوبة المواصلات ولبعد الميدانين بعضهما عن بعض ويواجه الإنجليز بقواهم العديدة قوة عرابى فى التل الكبير ويثبت الجيش الباسل القليل العدد ولكن الخيانة لم تلبث حتى عرضت الرجال الأبطال إلى هزيمة منكرة: خيانة بعض قواد عرابى وكثير من الأعراب الذين قاموا بمهمة هدى الإنجليز إلى الطرق فى الصحراء لمداهمة الجيش المصرى.

ويهرع عرابى إلى القاهرة ويستشير أعيانها وما بقى معه من قواد فى

الدفاع عنها فيستمع له القليل ويلوى عنه الكثير آذانهم فيسقط فى يده ويستسلم لعدوه هو وأصحابه ويدخل الإنجليز القاهرة ويعسكرون فى العباسية ويفرح الخديو الخائن بنصر الأجنبى ويعتزم الفتك بعرابى وأصحابه ويرسل إليهم فى سجونهم الخصيان يبولون عليهم وهم فى أغلالهم لا يستطيعون عن أنفسهم دفعا .

ويسعى الرجل الإنجليزى العظيم القلب المستر ويلفرد بلنت الذى كان يناصر الحرية فى عرابى إلى الدفاع عنه وجمع المال له ولأصحابه وإقامة محامين من الإنجليز لمعاونته وتحويل محاكمته من محكمة مصرية إلى أخرى إنجليزية . ويحكم عليه وعلى أصحابه بالموت الذى استبدل بالنفى المؤبد إلى جزيرة سيلان . وفى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ أعد لهم قطار استقلوه من ثكنة قصر النيل لنقلهم إلى السويس فركبوه هم ومن اختاروه من الأهل والخدم وفى ٢٨ ديسمبر ركبوا الباخرة التى أقلعت بهم إلى سيلان فوصلوها مساء ٩ يناير سنة ١٨٨٣ .

وفى يوم ١٩ مارس سنة ١٨٩١ توفى الرجل الثانى فى الثورة عبد العال حلمى بكولومبو . وفى فبراير سنة ١٩٠٠ أذنت الحكومة المصرية لطلبة عصمت الرجل الثالث فى الثورة بالعودة إلى مصر لاعتلال بدنه فمات عقب وصوله بقليل . وفى كندى عاصمة سيلان مات محمود باشا فهمى المهندس الذى عصا عرابى أمره فوقعت الكارثة . وفى عام ١٩٠٠ دفن معه يعقوب باشا سامى . وفى هذه الجزيرة الوخمة فقد البارودى الشاعر نور عينيه ورجع إلى الوطن سنة ١٩٠٠ . وفى ١١ يونيو سنة ١٩٠١ عفا عباس الثانى عن عرابى وصاحبه على فهمى، ومات عرابى فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ واستكانت القاهرة للحكم الأجنبى أعواما طويلة استكانة قلقة حتى هبت ثائرة غاضبة سنة ١٩١٩ .

نلسون وأخاديعه الأربعة عشر

هذا الشاب النحيل يزعج الاستكانة التى فرضها الاحتلال الأجنبى على البلاد وعاونه عباس الثانى مستترًا ثم خذله بعد ذلك ولانت قناته للسير الدون غورست المعتمد البريطانى .

وجاء محمد فريد الفريد فى تضحيته وأزعج هذه الاستكانة أيضًا ومعه عبد العزيز جاويش ، وأحمد فؤاد والصوفانى ، وأمين الرافعى . وحافظ رمضان ، وإبراهيم الوردانى وإمام واكد ، وعبد الرحمن الرافعى . وعبد اللطيف المكباتى ، ومصطفى النحاس . الذى نكث بعد ذلك . وحافظ عفيفى المرتد عن مبادئه . ومحجوب ثابت الطالب الشهرة وفكرى أباظة وغيرهم من الكهول والشباب .

وهذا الشعب يتعلم ثم يتعلم على الرغم من هذا القسيس الاستعمارى دنلوب . وهذه الحرب قد طحنت البلاد بأثقالها ، فغلة الفلاح مسلوبة السلطة العسكرية بالسياط والحبس والإهانة ، وأبناؤه يساقون إلى رمال الصحراء المشتعلة تحت وهج الشمس المحرقة يذبحون ويقتلون ويؤسرون . ويعز القوت والوقود فى المدن والأقاليم . ويجوع الشعب ويعرى ، ويضيق عليه فى الروحات والغدوات فى الليل والنهار ويعيث فليبيدس وأعوانه فى البلاد فسادًا ويقدمون للسجون الأحرار وغير الأحرار . وتقلع السفن بالمنفيين إلى مالطه . ويجول الجنود الاستراليون فى أحياء القاهرة ينهبون ويشيعون الأذى ، ويحرقون الدور ويعتدون على الأعراض والأموال .

ويأذن الله بالنصر للحلفاء ، ويعلن الرجل المخدوع نلسون النبى المزيف أخاديعه الأربعة عشرة ، وتنخدع الشعوب وفيها مصر ، وفى

١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ينطلق ثلاثة رجال يمثلون التجربة والذكاء والغنى ويسألون المندوب السامى العسكرى فى استقلال مصر ورفع الحماية عنها والسماح لهم بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر فرساى مؤتمر حرب ١٩١٤ . الذى زعموا أنه مؤتمر سلام . ذلك المؤتمر الذى حمل من الجريمة أكثر مما حملت الحرب الواضعة أوزارها من قريب .

فيأبى الإنجليزى المستعمر السماع . وينصرف الثلاثة وقد أزمعوا أمرًا خطيرًا أشاعوه فى البلاد . فهبت الأمة تؤيدهم . وهبت الحكومة تؤازرهم وهبّ المستعمر يقاومهم . وأبت مصر إلا أن تدفع عن حقها . وإلا أن يسافر وفدها إلى باريس لإعلان حقها فى مؤتمر الصلح .

وتقع الكارثة ويسرع الأجنبى الأحمق فى إشعال نار الثورة الكامن لهيبها فى الصدور . ويقبض على أربعة من رجالات مصر أنس فيهم الحزم والذكاء والعناد . ويطوّح بهم إلى مالطه . التى عرفت من المصريين رجالا أحرارًا .

وينفجر المرجل المقفل على السخط والتبرم والظلم . ويعمد الطلبة إلى التظاهر . والعمال إلى العنف . والفلاحون إلى تخريب المواصلات . وتعمل الأسلحة التى لا تزال تقطر من دماء ضحايا الحرب فى الصدور الباسلة فلا تتراجع ، ولا تنهزم . فهى دائبة الكر والصراع .

ويغتلى حصن الثورات القديم بالثوار يؤمونه فى العشايا . ويقوم رجاله المعممون على ذؤابة منبره بالتحريض وعلى التضحية بالدم والمال . ويشهد مسجد جوهر مشهدًا لم يألفه فى حياته . يشهد طيالس سودًا وعمائم سودًا وصدورًا سودًا تتأرجح عليها الصلبان من الصفر

تعتلى هذا المنبر الذى لم يشهد إلا العمائم البيضاء . ولم يسمع على درجاته إلا الله أكبر والصلاة على النبى .

يسمع هؤلاء الإخوان فى الوطنية يرتلون عقيدة الوطن ويكبرون باسم مصر . وتأتلف القلوب والأيدى والأغراض . وتستحيل الأمة كلها إلى فرد واحد . يطالب بالاستقلال . ولا يعنيه الثمن المدفوع فى هذه السبيل .

الإنجليز يتساقطون صرعى الثوار

ويرتجف الأجنبى من هذه العزائم المؤتلفة لأول مرة فى حياته منذ عام ١٨٨٢ . فيطلق الزعماء الأربعة من منفاهم . وينطلق أول نصر فى الجهاد . وتصير مصر إلى الأمام . وتسرى الأيدى المسلحة فى الظلام للاغتيال فيتهاوى الجنود والمدنيون من الإنجليز صرعى . وتفتك الجنود بالشعب الباسل . فيحمل ضحاياه على الأعواد فى مشاهد حافلة من الرجال والنساء من كل الطبقات .

ويحار الأجنبى ويحاول أن ينفذ إلى هذا الاجماع من منافذ الإغراء بالسلطان والأموال ليفضه شيعا وأحزابا . فلا يستطيع .

وينقسم الوفد فى باريس على نفسه . فصدقى غاضب على سعد وعبدالعزيز فهمى لا تقوى أعصابه الثائرة دائمًا على مواجهة رئاسة سعد وخيلائه ولكن الشعب لا يعرف زعيما إلا سعداً . ويغضب مع زعيمه على الخارجين عليه .

وتشهد القاهرة أعظم استقبال شهدته فى حياتها الطويلة : فالزعيم قادم من باريس . بعد جهاد لم يكتب له النصر بعد . وبعد أن أبى أن

يسمع لملنر الموفد من الحكومة الغاصبة إلى الشعب المصرى ليخادع ويراوغ . فالجموع متراصة . واليوم كله حشر . والأصيل قرب أو كاد والعربة السوداء المفتوحة الغطاء . يقف على أسفل مقعدها رجل مهوب كأنه أحد آلهة الإغريق القدامى . يلتفت يمنة ويسرة رافعًا يده اليمنى إلى رأسه معلنا شكره . والعربة تكتظ بالحاشية من أنصار الزعيم ومن محبيه . وعلى حيزومها جلس ذلك اليوزباشى الأمى بشاربه الصاعد المفتول . الذى كان يوما حاجبا فى وزارة الحقانية ورفعه إخلاصه لحسين رشدى إلى درجة ضابط . ذلك اليوزباشى الوفى الطيب عبدالمنعم . الذى كان يشيع ضحايا الإنجليز من المصريين فى مشاهد رهيبة . ويمنع الضباط الشبان المشيعين من الفرار مناديا فيهم بالثبات . متحديًا عربات الإنجليز المصفحة ومدافعهم المشرعة المسددة إلى الصدور .

وتعمل الطبائع التى لا تزال تتردد فى بعض جوانح رجال هذا الشرق العربى ما عجز عنه الأجنبى فتتفرق الكلمة . وتترك الوحدة شيعا وأحزابًا . ويكون حب الرئاسة أظهر هذه الطبائع وأقواها سلطانا .

ويقع الخلاف على رئاسة مفاوضة الإنجليز . فسعد فى شبرا ينطق بأول الخلاف . ويستشرى الخلف . فيضحك الأجنبى المتربص مسرورًا . ويصم أكثر الشعب عدلى بالخيانة .

الزعيم الذى لا يبرح فراشه

وينجم حزب الأحرار الدستوريين . فيتولاه ذلك الزعيم المترف الذى لا يكاد يبرح فراشه كسلا وفتورًا : وإن دعى بالزعيم النبيل عدلى يكن .

وتنتج الثورة على رغم خلاف زعمائها : الدستور والبرلمان واستقلالا منقوصًا وحرية الصحافة والسفور للمرأة التى ظلت قرونًا محتجبة خلف الأقنعة السوداء والبيضاء . وتدفعها إلى الاختلاط بالرجال الذين كانوا وحوشًا مرهوبة منها . وتطلق إسارها من الجهل وتدفعها إلى دور العلم . والدراسات العلمية والفنية . والكتابة فى الصحف وعقد الجمعيات وافتتاح النوادى والمشاركة فى طلب حقوق الأمة والتعرض لرصاص الإنجليز وعصى البوليس المصرى المدفوع من وزراء يتصيدون حظوظهم من الأزمات . وتنتج الثورة التوسع فى دور العلم ونشر الثقافة ورواج الصحافة وازدهار الأدب والعلوم . كما أنها تنتج شرورًا غير قليلة منها غرور الشباب . وانطلاق الشهوات إلى المنافع والمغانم وقطع الأرحام وانقسام الأسرة الواحدة بعضها على بعض والتزوير فى الانتخابات المفضية إلى البرلمان وإحلال الناشئين مكان الأكفاء فى وظائف الدولة ، وإحداث العداوات بين أبناء الوطن الواحد . وتنصيب وزراء إمعات . واستعداء بعض الزعماء الإنجليز على إخوانهم المصريين ليفوزوا بالحكم . والاتجار بالوظائف . وتقديم التافهين . وغير ذلك مما يحسه كل من عاصر هذه الثورة العظيمة ثورة سنة ١٩١٩ التى كانت نعمة كبرى ونقمة صغرى .

فؤاد وفاروق يلوحان بسكرة الحكم

وينسى مبادئ الثورة الكبرى زعماؤها ويتهافتون تهافت الذباب على سكرة الحكم التى يلوّح لهم بها فؤاد وفاروق . فيصطخبون ويتزاحمون ويتساقطون فى مهاوى الذل والضعة وفقدان الكرامة .

ويلعب بهم الطفل الضخم الجاهل الفاجر . فكلهم مكب على يده

الملوثة بالحلواء المسمومة . يقبلها ويمسح جبينه بها . ويركع على القدمين اللتين لم تمشيا إلى رشد قط ولم تعرفا إلا الملاهى فى القاهرة والأركان الموبوءة بالإثم والفجور وتسوء سمعة الأمة ويضعف كيانها وينصاع جيشها مسوقًا بيد قواد تلمع أكتافهم بالمدافع والسيوف والتيجان وتنطفى ضمائرهم بما دخلها من رشىء الرتب وتقديم باطل على غيرهم من الأكفاء الأحرار وبما يسوء الحر ويرضى النذل الخسيس .

ويشعل الفاجر حربا لا سلاح لها فى يد ولا عدة فى أوعية ، وتصفق له الأصنام ذات المدافع والسيوف والتيجان ، ويسوق لها الضباط الأحرار والجنود الأحرار إلى الذبح والقتل والأسر بسلاح فاسد وذخيرة فاسدة سرق أثمانها الفاجر طمعًا ورغبة فى الثراء الفاحش ، ويهب الشعب غاضبًا لوطنه وتحترق القاهرة ويندلع اللهب ويبلغ الفاجر بغيته فى إرضاء المحتل الجاثم على ضفتى القناة .

ويكتم ليل القاهرة سر هؤلاء الشبان الضباط المؤتمرين الساخطين على البغى والفجور والانحلال والأحزاب . . هؤلاء المجتمعون فى صمت فى الغرف المقفلة فى بيوت لا تنم على زوارها وتبلغ المؤامرة كمالها . يساندها أحرار من الوطنيين وتبرز فى ليلة من ليالى الصيف الرقيقة النسيم وتثب وثبة الخبير الجرىء الذى لا يبالى ، وتعتقل المدافع والسيوف والتيجان الغافلة اللاهية إلا عن الملق واستزادة المنافع والنفوذ .

اندلاع ثورة ٢٣ يوليو

ويذيع مذيعها فى دار الإذاعة المصرية النبأ العظيم فيذهل الناس وتقوم الساعة وينطلق الشعب مجنونا ثائرًا فرحًا يصفق ويهلل وتقع

الواقعة وينصاع الخليع الفاجر الذى لم يدر فى سمعه كلمة (لا) أبدًا. وتنخلع قلوب الزعماء وأشباه الزعماء وحواشيهم ونوابهم ومصفقيهم.

وتقلع المحروسة التى أقلعت بإسماعيل قبل ذلك بالضخم الأحمق المستبد وقد جللها الأصيل بثوب ذهبى حزين فى قلوب راكبيها. بهيج فى قلوب الشعب. وتقفز القصور الصاخبة بالنساء والملق والأبهة والترف. وتجوس يد الإصلاح فى المرافق الهامدة الراكدة فتحيي ميتها. وتمتد إلى الفساد فى الحكومة فتعمل على إبادته. وتنظر إلى هؤلاء الذين امتلأت بطونهم وأينعت وجوههم وبذروا الأموال فى أحياء أوروبا الصاخبة باللذة الحرام. واللابسين ثياب ثراهم. المنسوجة بأيد مكدودة معروفة خشنة من المعاول والفئوس. تلك الأيادى التى لاَ تعرف إلا الخبز الجاف والتافه من الخضر. والجريش من الملح. والتى تبسط كفيها لتبلغ أفواهها بالماء الآسن الحافل بذلك العلق القاتل الواغل فى الدماء.

نظرت الثورة إلى هؤلاء. فراعها الغنى الواسع والفقر الواسع فأخذت من الأول للثانى بمقدار لا يرهق الأول. ويرفع عن الثانى أثقال أجيال من الذل والإرهاق والجوع والحرمان.

وأخذت البغاة المستغلين بالرفق والرحمة. فظنّوا رفقها حمقا ورحمتها ضعفا فسدروا فى غيبهم وبكوا على استغلالهم. ومشوا فى الظلام ثعابين شائعات وذئاب مؤامرات. فبطشت بهم فى محاكمات عادلة ظاهرة. كشفت عن مساوئهم وأبانت فضائحهم.

وظل التعصّب المذهبى يلبس للناس شعار التقى ويخفى تحته دثار المطامع وحب السلطان. فكدّس السلاح. وأعدّ العدة ووثب وثبة

طاش رصاصها وأخذوا وجُوزوا بما هم أهله . وارتاح الدين والدنيا من شرورهم وسكنت نأمتهم .

عبدالناصر يرفع اسم مصر في باندونج

وعمدت الثورة إلى النيل فاستدرت خيره بالسدود تقيمها وتحجز بها الماء المنساب إلى الهباء وتحوله إلى الأرض الطيبة المباركة .

وقامت للجيش تعدّه وتسلحه بسلاح لا يعرف الفساد مدافعه ولا طائراته ولا مراكبه . وشادت له المصانع واستجلبت الثقيل من الدبابات والعارم من النفاثات يملأ صفيرها جو السماء .

وهيأت من الشباب مردة تهبط من السموات من غير أن يلحقها شهاب ثاقب . فهى شهاب ثاقب يجرف العدوَّ ويصد المغير ويعيد أيام صلاح الدين وقطز وقلاوون والغورى . كما هيأت منه حرسًا وطنيًا . وشغلته عن فراغه وعبثه بالجد والحزم وحب الوطن .

وكشفت عن باطن الأرض . فأخرجت الحديد والبترول والفوسفات عدّة الأمم وعماد الثروة . وعدة المستقبل .

ومشت للعلم فرفعت له المنائر فى مدارس ابتدائية وثانوية وجعلته كالماء والهواء كما يقول طه حسين .

ومشى رمزها : جمال عبدالناصر إلى آسيا يرفع اسم مصر ويقدّمه ويذيعه فى تلك الأمم العريقة فى القدم . ويبلغ الشاب الطوال المعكوف الأنف من الحنكة والكياسة ما لم يبلغه هؤلاء المحترفون ذوو الأسنان والتجارب والمطامع .

وتنسى الثورة نفسها وتؤثر السودان بالحرية قبل أن تقدمها إلى مصر ويصلب عودها فلا تماكس ولا تساوم فى حق مصر . فتسترد القناة ذلك الشريان المائى الجامع بين البحرين العظيمين . ويجلو الأجنبى عنها بعد أن عجزت عن طرده فحول الرجال .

وتصبح القاهرة فى أول مرة فى تاريخها الطويل يعبر طرقاتها حكام من أبنائها وأبناء أخواتها فى البحرى والقبلى ، ويرفرف على دورها أعلام تحريرها . وتصبح عاصمة جمهورية مصرية حقا . بعد أن كانت عاصمة خلافة للأجنبى المنحدر من القيروان ، وعاصمة سلطنة للأجانب من الأكراد والمماليك المحمولين من ديار الأناضول وجبال القوقاز . وولاية تابعة لبلد أجنبى ، وعاصمة لسلطة حكام ينحدرون من آباء غاصبين شذاذ مرتزقة ، ثم عاصمة لمملكة حكمها اثنان من تلك الأسرة الفاجرة الظالمة .

وسلبت الثورة هؤلاء المستغلين من بيت محمد على ثرواتهم وردتها للشعب . وكفت مصر الجحود والإهانة والانتفاء من الانتساب إليها . وحمل كد أبنائها إلى المصايف الأجنبية . ودور القمار العالمية وميادين السباق يبعثر وينفق هباء منثوراً .

أخلاقها وعاداتها ومعايشها

ما برحت القاهرة منذ عهدها الأول تطبع كل من يتخذها سكنا ومقامًا بطابعها الخاص وبذوقها الخاص وأخلاقها الخاصة .

فما نزلها شامى أو عراقى أو مراكشى أو غير ذلك من الغرباء إلا تركته قاهريا قُحًا بعد قليل أو كثير من نزوله فيها .

وقد اعتز بها أهلها فسموها أم الدنيا لظرفها وكياستها . ويحن إليها الغريب الذى يزورها أول مرة فيقول : إذا شرب المرء ماء النيل مرة . فلا بد أن يشربه ثانية . ويقول فيها شوقى :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى
يصبح الفكر والمسلَّة ناديـــه وبالسّرحة الزكية يمسى

ولا تزال تهفو إليها قلوب أهل الريف . وتعشقها . وتصف الظريف النظيف الثوب بأنه ابن مصر . ومصر هنا : القاهرة .

ومن حب المصريين فى سكناها تراهم يهاجرون أفواجًا إليها . حتى اكتظت وامتلأت . وهى منية قلوب موظفى الدولة فما عين موظف فى وظيفة إلا واشرأبت نفسه تتطلع إليها . وما بعد عنها إلاّ وأجهد نفسه

سعيًا للرجوع إليها. وقد هام بها كل سكان الأقاليم. فزيارتها روح وريحان والنزول فيها بهجة ونزهة.

عرفت فتاة ألمانية جاءت دار الكتب المصرية للمشاهدة. فلما أفضنا في الحديث ـ وكانت حضرت للسياحة ـ لمست منها إعجابا وحبًا لهذه المدينة القديمة حتى إنها كادت تبكى لأنها ستبرحها غدًا إلى بلادها.

ومن أخلاق أهلها: الظرف وحب النادرة. فما حدثت حادثة تمس الأخلاق وتنطق بالغريب المستهجن إلا وصاغ لها أهل القاهرة نادرة لطيفة فى قصة لطيفة. وقد تعصب أهلها القدامى فقالوا: الذوق ما فتش باب النصر. وباب النصر: أحد أبواب مدينة جوهر.

ومن أخلاقهم: التأدب مع الناس ومخاطبتهم فى رقة ومجاملة. ومن أخلاقهم: البشاشة فى اللقاء وإفشاء السلام. والترحيب بالزوار والإسراع بالمعونة للملهوف. واللين فى المساومة.

الفضول والتظاهر بالغنى

ومن أخلاق أولاد البلد فيها: الكرم وإكبار الشيوخ وتوقيرهم والسماع لمن فوقهم ثقافة ودرسا. والقناعة بالموجود. واحتمال الأذى والطاعة لحكامهم. وكف بعضهم بعضا عند احتدام الجدل أو التشابك بالأيدى. والإسراف فى الشهوات. وإيثار أنفسهم على أولادهم وزوجاتهم وذويهم.

ومن أخلاق الطبقة الوسطى: حب الفضول والتظاهر بالغنى وادعاء العلم وكرائم الأحساب. والتمسح بمعرفة العظماء والأغنياء. ورعاية أولادهم وتعليمهم. والسعى إلى الكمال. بخطوات تتعثر

أحيانا وتهتدى أحيانًا أخرى . وإيثار أسرهم على أنفسهم . وحب السماع والسهر فى المقاهى . والغزل فى التعرض للنساء باللفظ والإشارة .

ومن أخلاق الطبقة العليا : التشبه بالأجنبى والميل إلى الغطرسة والكبرياء . وازدراء الفقراء . والانتفاء من الانتساب إلى الفلاحين . والجنوح إلى التعلق بالأصل الشركسى والتركى . ومسك أيديهم عن العطاء إلا متورطين أو منغمسين فى فتنة : قوامها الجمال والإغراء . ومن أخلاقهم أيضًا : قطع الوشائج بين الطبقتين المتقدمتين . فليس بينهم تزاور ولا مجالسة ولا تعارف . إلا ما تمليه المصلحة وتوجبه المعايشة .

ومن عادات أهل البلد : التزاوج . والإنفاق على الكيوف . وغشيان المقاهى صباح مساء . وبذل الأموال على الأصحاب فى ا لشراب البرىء وغير البرىء . بين المقاهى والحانات وبؤر الدخان الأزرق . ومن عاداتهم : الإجادة فيما يقومون به من حرف مع كسل وتراخ وحب للفراغ .

السمنة ومضغ اللبان

ومن عادات نسائهم : السعى إلى السمنة . وارتداء الصارخ من الألوان فى أزيائهن . والصخب فى الخصومة . والمبالغة فى المكايدة . وادعاء الأمراض عند طلب الحاجة . يجعلن هذا من الدلال على بعولتهن ومن عاداتهن : التثنى فى مشيهن . ومضغ اللبان . ونتف الوجوه والصدور والسيقان بالحلواء المعقودة وتزجيج الحواجب وربما

بالغن. فارتدين الزى الغربى. فكشفن عن ظهورهن وصدورهن. ومن عاداتهن: القلق فى الحياة الزوجية والشجار مع بعولتهن. ومن عادات نساء الطبقة الوسطى: طاعة بعولتهن. والقيام على أطفالهن بالرعاية والحب. وإجادة الطهو والغسل والخياطة والاحتشام فى الملبس والزينة. والاستقرار فى الحياة الزوجية. وتحدّث بعضهن على بعض فى غيبة وحسد. والاقتصاد فى النفقة. والحفاظ والوفاء للأزواج. وإن انحرفوا عن الوفاء لهن. ومن عادات نساء الطبقة العليا: التبرج وغشيان ميادين السباق والنوادى الرياضية. وزحم المتاجر التى تقدّم الأزياء الغربية. وشهود حفلات البرّ للتظاهر ولعرض الأزياء ولاصطياد الأزواج، ومن عاداتهن: الكبرياء والسعى إلى النحافة والتحدث باللغات الأجنبية والرقص وكثرة الملل من بعولتهن وتغييرهم فى سهولة ويسر.

ومن عاداتهن: الإسراف والسفر إلى أوروبا والتشبه بنساء هوليوود وترأس حفلات البر تقليدًا وتظاهرًا. ومشاركة الرجال فى الشراب والرياضة.

ومن هوايات أبناء البلد: تزجيل الحمام للطيران. وترويض الكباش للنطاح. وإعداد الديوك للهراش. وكان كثير من الطبقة العليا فى العهد القديم يشاركونهم فى هذه الهوايات. مثل أولاد على باشا شريف ومحرم باشا شاهين وحافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى. وفايق خيرى وكثير غيرهم.

ومن هواياتهم إلى عهد غير بعيد: اتخاذ الحمير الفارهة. مطايا يلبسونها اللجم الفضية والبراذع الحريرية ويتركونها مشدودة اللجم أمام المقاهى يسيل لعابها ويبدو ضيقها. وربما اتخذوها للسباق فى الأماكن الخالية فى العباسية وناحية فم الخليج.

ترويض الرهوان

ومن هوايات الميسورين منهم : اتخاذ الأمهار وترويضها بأثقال الحديد يضعونها فى أرجلها لتتخذ مشية يرضونها ويعجبون بها . ويسمون هذا الصنف من الخيل : بالرّهوان .

ومن هوايات الميسورين أيضًا من هذه الطبقة : اتخاذ عربات الدوكار للنزهة (وهى عربة صغيرة يجرها جواد واحد) فى أحجام وأشكال مختلفة وربما بالغوا فى زينتها . فزيّنوها بالورد نهارًا وبالمصابيح ليلا .

ومن هواياتهم . لبس الحرير اللامع فى أوشحة يطوقون بها أعناقهم أو يلوثونه عمائم لاصقة برءوسهم . وحبّ التختم بخواتم من الفيروزج الأزرق . والعقيق الأحمر .

ومن هواياتهم . تدخين الجوزة المعبأة بالتمباك وبغير التمباك أحيانًا وشرب الشاى بكثرة والقهوة من غير سكر . وغشيان الحانات المتواضعة لشرب الكونياك الرخيص الثمن والزبيب والروم والنبيذ .

النزهة فى بركة الفيل

ومن هوايات الطبقة الوسطى : التحدّث فى السياسة وإطلاق الشائعات . والاختلاف إلى المقاهى فى الأحياء النظيفة المكتّظة بالمتاجر للغزل ومشاهدة النساء الرائحات الغاديات ، والتنزه على شاطئ النيل فى الجزيرة والجيزة والسير على كورنيش النيل والتظاهر بالزىّ الأنيق والحذاء اللامع . وكانت هذه الطبقة فى العصور الغابرة تغشى بركة

الأزبكية وبركة الفيل . وخليج أمير المؤمنين . والخليج الناصرى للنزهة والغزل والترويح عن النفس . والاختلاف إلى ساحة باب اللوق لمشاهدة خيال الظل والحواة .

ومن هوايات الطبقة العليا : غشيان نوادى السباق وإعداد الخيل وتضميرها للمراهنة عليها . وحبّ صيد البط على برك فى الرّيف معدّة لذلك . وغشيان النوادى للمقامرة . والتحدّث فى الفراغ والغزل والسياسة . واقتناء المركبات الفاخرة الأمريكية والإنجليزية . والتسابق إلى السفر إلى المصايف العالميّة . وكان من هوايات هذه الطبقة فى العهد القديم : حيازة الجياد الضامرة للفروسية والسباق وحب الصيد بالفهود والصقور والبزاة المدرّبة . ولعب كرة الصولجان (البولو) فى ميدان القلعة : واقتناء الجوارى الحسان والمماليك المُرْد وحيازة الجواهر الثمينة .

ومن هوايات الطبقة العليا فى أواخر القرن التاسع عشر : اقتناء المركبات اللامعة والجياد المجرية والروسية . وتدريبها وإعداد السوّاس للجرى أمامها وهى تجرّ العربات ، وإلباس سوّاقيها أزياء مزركشة من منسوج القصب .

رداء الإسطمبوليين

ومن هوايات المماليك فى عصورهم الأولى والمتأخرة : ركوب الجياد فى سروج ولجم علائقها من الذهب والفضة ، وخروجهم للنزهة فى بركة الأزبكية وشواطئ النيل فى الجيزة وبولاق .

ومن لباس الطبقة العليا من السادة فى العصور الأولى : الأثواب الفضفاضة الملوّنة من جبّات وأردية وعمائم مزيّنة باللآلئ ومنسوجة من

الجوخ الغالى الثمن والحرير السورى. ويتكون الزىّ من قطعتين: سراويل واسع يضيق فى أسفله. فهو أشبه بلباس أبناء البلد من أهل الإسكندرية اليوم. وفوقه رداء ضيّق بعض الشيء. أما لباس العامة فهو سراويل من نسج الأنوال المحلية فى تنّيس. ودمياط وغيرهما من القرى أو المدن التى عرفت بأنوالها فى تلك العصور. وبدأ الرجال فى لبس الإسطمبوليين من أواخر القرن التاسع عشر. وهى معاطف سوداء تحتها سراويل ضيقة. ويكاد لباس السيدات يشبه لباس الرجال إلا فى صدار لطيف لا يكاد يجاوز الكتفين إلا قليلا. وفوق رءوسهن عمائم مائلات صغيرات تنسدل منها عذبة تطول حتى تلحق الفخذ تسمى العزيزية. وفى القرن التاسع عشر: أخذت النساء عن الفرنسيات زيهن. وكانت ثيابًا فضفاضة الذيول ضيقة الأكمام. والصدور والخصور. وكانت تنمّ عن الاحتشام التام.

ولباس الطبقة العليا من الرجال فى العصر الحديث: بذلات أنيقة غربية يبالغ خياطوها فى تدويرها وتحويرها وتضييقها وهى تتبع الذوق الإنجليزى تارة والذوق الفرنسى تارة أخرى. وقد يجنح بعضها إلى الذوق الأمريكانى خصوصًا فى أردية الشتاء (المعاطف) وتحتها قميص حرير يميل غالبا إلى الأبيض أو اللون السمنى. وأحذيتهم من النوع الإنجليزى الغالى الثمن المتين الصنع.

ولباس الطبقة الوسطى فى العصر الحديث: يشبه ذوق الطبقة العليا ويختلف فى أثمان الأقمشة للقدرة المادية، والفارق بين الطبقتين فى هذه القدرة، وقد يلبس جماعة هذه الطبقة القفاطين الحريرية. (الشاهى) وفوقها البلاطى «المعاطف» من الجوخ والصوف، وهم غالبًا من تجار الحوانيت. ولا تزال طوائف علماء الدين يرتدون الجلباب والقفاطين والعمائم.

ويلبس أولاد البلد فى العصر الحديث : جلابيب من الأصواف شتاء . ومن الحرير الصناعى صيفًا ، ويلبس الفقراء منهم : جلابيب الكستور شتاء والبفتة أو التيل صيفًا ، وفوق رءوسهم لاسات لاصقة تحزم جباههم .

وتلبس نساء الطبقات العليا : الحرائر الغالية المستجلبة من ليون وغير ليون ويتبعن فى تفصيلها الذوق الباريسى المستحدث فى كل عام عند جاك فاث وكريسيان ديور وغيرهما من بيوت الأزياء الباريسية ، وتقوم هذه البيوت الآنفة الذكر بإعدادها لهن .

وتلبس نساء الطبقة الوسطى : الأنسجة المتوسطة الأثمان وينهجن منهج الطبقة الأولى فى التفصيل ولكن عن طريق الكاتلوجات المصوّرة .

ويلبس نساء أولاد البلد : خليطًا عجيبًا من الأذواق . منه القديم والمستحدث . كل على حسب قدرة الأزواج فى الكسب وحبهم لأزواجهم .

أطعمة أهل القاهرة

كان الطعام فى العصور الأولى من حياة القاهرة بسيطًا فى تكوينه . كان لا يتجاوز اللحوم والخضر والخبز . فى طهو ساذج بسيط . تكاد ألوانه لا تتجاوز العشرة ألوان، وهى الملوخيا والباميا والخبيزة واللوبيا والكرنب والقنبيط والثريد والعصيدة، والمفروكة .

ولكن ما لبثت أن تعددت الألوان المستجلبة مع المغاربة والأكراد والأتراك والجراكسة، فعرفت القاهرة طعام الشركسية وقوامه الأرز والدجاج والكسكسى والتتربوريك، وقوامه العجين واللبن والسمن . ويالنج ضُولمه (الضولمة الكاذبة) وهو حشو أوراق العنب وأوراق الخس وخضر الفلفل بالأرز من غير اللحم، وداود باشا . وهو طعام من اللحم المكوّر يجعل فى المرق الأحمر والبصل . والأرز الخديوى . ويعمل من نسائر الديوك الرومى . وهو قريب من الشركسية . وطاس كباب وكباب الحلة . والكفتة المغربية . والأطعمة الغربية مثل الفليتو والكستليتة بانيه . والسمك بالمايونيز . والبفتيك . وغير ذلك كثيرًا جدًا . وقد يتجاوز المائتى لون من ألوان الطعام الدخيلة إلى القاهرة مع المستعمرين . أو من شذّاذ الآفاق . والغالب على أطعمتها اليوم الطهو التركى والفرنسى .

وطعام الفقراء منها بسيط تافه. والغالب فيه الفول المدمس الذى يشركهم فى أكله الطبقات المتوسطة والعليا. وقد تأكله الطبقة المتوسطة كل صباح. وتلمّ به الطبقة العليا إلماما يسيرًا كلما ملّت طعامها الدسم الغالى الثمن. وقد تأكله الطبقة الفقيرة فى وجباتها الثلاث.

وتبلغ الطعمية مبلغ الفول فى أهميته عند هذه الطبقة أيضًا. وتجرى مجرى الفول عند الطبقتين الآخريين.

والطهو عند الطبقة الفقيرة: بسيط ساذج لم يتغير عن طهو العهد القديم. عندما نشأت القاهرة ولكن يختلف عن ذلك عند الطبقة الوسطى. فهو أحسن إتقانًا وأكثر ألوانًا. وتغلب عليه الصناعة التركية.

والطبقة العليا: يجنح طهاتها للذوق الفرنسى. فأكثر لحومها تنضج نصف إنضاج عند شوائها، ويحفّ بها الخضر من الخس والبطاطس والبنجر والقنبيط، وأكل هؤلاء قليل، وقد لا يأكلون الخبز إلا فى القليل النادر، وذلك ليتجنّبوا السمنة فى أبدانهم، وفى هذه الطبقة جماعات يحبّون الطعام ويقترحون على طهاتهم ألوانًا تركية دسمة، وأنواعًا من الحلواء تقطر حلاوة ودسومة، وهم عادة من أولاد الإقطاعيين الفلاحين الأغنياء.

وتتناول الطبقة الفقيرة كل طعامها باليد، وكذلك الطبقة الوسطى، إلا بعضًا منها يؤثرون النظافة فيتناولون طعامهم بالأشواك والملاعق والسكاكين.

أما الطبقة العليا فكلها تتناول طعامها بالأشواك والملاعق والسكاكين، وتفتن فى ذلك، فللسمك أشواك وسكاكين، وللحوم أشواك وسكاكين، وللدجاج والحمام أشواك وسكاكين وللفاكهة

أشواك وسكاكين، وقد يندّ قليل جدًا من هذه الطبقة عن استعمال هذه الأدوات ويأكلون بأيديهم، وهم جماعة الإقطاعيين الأغنياء.

وكل طهاة الطبقتين الفقيرة والوسطى نساؤهم، أما الطبقة العليا. فلهم طهاة من الرجال قد يبلغ أجر الواحد منهم من المشاهير ثلاثين جنيها.

وكان طهاة هذه الطبقة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر: جوارى سودًا، وقبل ذلك كان طهاتهم من غلمان الشراكسة والأتراك.

أول مطعم كباب

وأول من باع الجمهور اللحم مشويًا فى القاهرة مطعم عام: «حاتى القربية». وكان فى أول أمره جزارًا واسمه الحاج حسن. وابنه على حسن يفتتح الآن مكانًا للشواء بجوار سينما متروبول خلف شيكوريل. ثم تتابعت مطاعم الحاتى فى أنحاء القاهرة، وكانت فى أول أمرها لا تقدّم إلا الشواء، وسلطة الطحينة وسلطة الخضر. ثم تجاوزت ذلك إلى تقديم مختلف الطعام الشرقى لروّادها.

ومن أشهر مطاعم اللحوم فى القاهرة: محل الحاج على الدهان (الشهير بالعقر) فى السكة الجديدة وهو يقدم لحوم الجداء مطهوة فى تنانير عميقة. تسد أفواهها بالطين ويحمى عليها بالفحم حتى تنضج.

ومن أشهر أماكن طعام الفول: محل «خالتى شفا» فى أوائل القرن العشرين. وكانت تبيع لطلبة مدرسة الحربية فى العباسية. ومحل مهيأ بجوار الأزهر. وكل زبائنه من طلبة الأزهر. ومحل إيزافتش فى ميدان التحرير ومحل التابعى فى ميدان التوفيقية.

ومن أشهر أمكنة طعام الطعمية : الحلوجى فى السكة الجديدة ويبيع لونا من الطعمية محشوة بالبيض والفول . وطعمجى الصنادقية وهو قريب من الأول .

وكان رجل يبيع الطعمية على شريطة أن تقف أمامه فإذا وجد شعراً فى وجهك باع لك . وإلا أبى البيع . ومن أشهر من عرف من باعة الطعام فى أواخر القرن التاسع عشر : أم بكير . وكانت أمرأة ضخمة مخشّية البأس لها سطوة الملوك . تبيع المحشى على ناصية طريق عشش الشركس فى بولاق قريبا من كوبرى أبى العلاء . وكان زبائنها من اللصوص والقتلة وعرّام الرجال . ولكنهم كانوا جميعا يرهبونها ، فلا يستطيع أحدهم أن يأكل ويهرب أو يأكل بالنسيئة . فسطوتها قاطعة مانعة . ومن أشهر باعة اللبن : المالكى بجوار ضريح الحسين بن على . وهو يقدم أنواعًا من اللبن بين حليب ولبن بأرز مع خبز مصنوع بطريقة عجيبة توائم اللبن وتلائمه . وكان فى القاهرة فى أوائل القرن العشرين جمل يحمل صندوقا به كعك وصاحبه يصيح : تلاتة بالمليم بسمن البقرة .

ومن أشهر الأمكنة الجامعة فى تقديم الأطعمة الشرقية اللذيذة : الحى الحسينى فهناك الفطائر . والكوارع ، ولحوم الشواء ، والطواجن فى الفرن ، وعلى الجملة . فالحى الحسينى أشهر مكان فى مصر لتقديم الأطعمة الشرقية . وأشهر المطاعم فى أوائل القرن العشرين التى كانت تقدم الأطعمة الغربية : مطعم سانتى فى حديقة الأزبكية . ومطعم الكورسال فى شارع محمد فريد . ومطعم دلبانى فى قصر النيل وصاحبهما واحد ، وصولت ، وفنش ، وإركل ، وفلاش ، وباريزيانا ، وبافاريا .

مواصـــــلاتها

كانت مواصلات القاهرة عند نشأتها : عدتها الخيل والحمير والبغال والجمال . شأنها فى ذلك شأن سائر المدن الإسلامية . فلم تعرف بغداد ولا دمشق . ولا قرطبة فى عصورها البعيدة . تلك العربات التى كان يعرفها قدماء المصريين ورومان روما . والتى كانت يجرها حصان واحد . وتتخذ للحروب وللصيد .

ومكثت كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر . فعند ذلك عرفت عربات الحنطور . التى شاع صنعها فى فرنسا فى القرن السابع عشر . فاتخذها الولاة من بيت محمد على لتنقلهم . وتابعهم الذوات من أتباعهم من الجركس والأتراك . وقليل جداً من أغنياء المصريين .

وكانت فى أول أمرها ووسطه فخمة لامعة . تجرها جياد مطهمة تُجلب عادة من بلاد المجر والروس . ويقوم على سوقها غلمان من الروم أو الترك . حسان الوجوه . يتراءون فى أزياء حمراء تشبه أزياء الفرنسيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وأمامهم عداءون فى أيديهم عصىّ طويلة صائحين فى المارة : إوعى إوعى .

وكان السادة الأغنياء يتخذون لنسائهم عربات مقفلة . تقوم على

جوانبها نوافذ بللورية الزجاج وتسمى (بالكومبيل) وذلك للحرص على النساء من التعرض لفضول عيون ا الشعب.

وظلت المواصلات بدائية. لا تعرف غير الدواب. إلى أن صنعت العربات الكارو فى أواخر القرن التاسع عشر. فاتخذها الشعب مطية له ولأثقاله. فكان الناس يتكدسون عليها جماعات ومعهم متاعهم للوصول إلى ما يبتغون من أغراض. . وكانت تساندها الحمير يسوقها المكارون مأجورة. وأكثر أوقات امتطائها هو الليل. حين ينصرف السمار من الحانات والمقاهى ودور اللهو فى الأزبكية. وكان أشهر مواقفها: موقف الخازندار. حيث يوجد الآن محل سمعان صيدناوى.

ثم رأى سوارس وهو رجل أجنبى. أن يستفيد اقتصاديا من هذا المرفق. فأنشأ عربات من الخشب تسع العشرة والعشرين من الركاب. ويجرها بغلان. وجعل أول خط له بين العتبة الخضراء وبولاق حيث مدرسة الصنايع القديمة. ثم اتخذ خطًا ثانيًا بين العتبة والسيدة زينب، وتتابعت له بعد ذلك عدة خطوط فى مناحى القاهرة.

وجاءت بعد ذلك شركة بلجيكية، ونالت امتيازًا لسير مركبات كهربائية، فأنشأت أول خط للترام سنة ١٨٩٥ . وكان بين العتبة الخضراء والقلعة. ثم توالت خطوطها حتى شملت أغلب مناطق القاهرة. وظلت سوارس تعمل، ولكن فى المناطق التى خلت من عربات الترام: من العتبة إلى الدراسة، ومن الدراسة إلى الإمام الشافعى، حتى وقفت عن السير نهائيًا فى السنين الأخيرة، حيث حل مكانها الأوتوبيس.

وانحدر عزّ الحناطير، وخرجت للجمهور يمتهنها فى مواصلاته، كما انحدر عزّها أيضًا بظهور السيارة فى أوائل القرن العشرين، وأول

من ركب السيارة فى القاهرة : الدكتور محمد عبدالوهاب، وكانت ماركة (زينو) . ثم جاء بعده السادة الأغنياء فهجروا عربات الخيل واتخذوها مركبا .

وجاءت الحرب العظمى عام ١٩١٤ فرأى بعض المتتفعين أن يجعل من السيارة تكسًا مأجوراً . للكسب من جنود الحلفاء المتدفقة على القاهرة .

ثم استحدث بعد ذلك الأوتوبيس . وكان ملكا للأفراد . فكل فرد كان يستطيع أن يستغل عربة لحسابه الخاص . فكانت خليطًا من الأحجام والألوان والعلامات . إلى أن جاءت الشركة الإنجليزية (ثور نكروفت) فأخذت امتياز الأوتوبيس على كل خطوط القاهرة . وأرهقت الجمهور فى سنى الحرب، حرب ١٩٣٩ . واشتد بلاؤها فرأت الحكومة أن تشرك معها بعض شركات أهلية . فلم يغن ذلك شيئًا لازدحام القاهرة بسكانها وبالوافدين عليها من سائر القطر . فتقدم ذلك المهاجر المصرى أبو رجيله وورث تلك الشركة الإنجليزية . وسير فى خطوطها عربات أنيقة حمراء . وأخذ يزحم سائر الشركات الأهلية حتى قضى على بعضها وأخذ يتطلع للقضاء على الآخريات عام ١٩٥٨ .

الشـــحـاذون

لـم تعرف مدينة من مدن الشرق العربى من الشحاذين مثل ما عرفت القاهرة . فهى لا تزال يفد عليها من سائر الأقطار الإسلامية وفود عدة من أبناء السبيل المعتزمين الحج والوافدين إليها فى جميع عصورها . ولولا هذه الحواجز المستحدثة فى الجنسية والجوازات وتحديد الإقامة والتأشيرات بالدخول . لضاقت بهؤلاء الغرباء الفقراء .

فقد عرف عنها فى القديم أنها بلد مضياف كثير البر كثير الخير فجاءه الغرباء كما قدمت فمنهم من عمل واستغنى ومنهم من خاب وسأل الناس إحسانًا . والإسلام دين يحض على الصدقة . فاستغل هؤلاء المتعطلون الكسالى سماحة هذا الدين فى قلوب معتنقيه فسألوا فأعطوا . حتى أصبح بعضهم يحصل من المال أكثر مما يحصل العامل المجدّ .

وأصبح هذا العمل الشائن فنًا عند هؤلاء . فمنهم من يتعامى . ومنهم من يتعارج ، ومنهم من يتأرجح فى مشيته ويهتزّ كأنه مشلول . ومنهم من يتخارص ويتصامم ، ومنهم من يستأجر الأطفال الصغار ويعرضهم وهم فى أثمالهم الممزقة . ويدعى أنهم أبناؤه . وأنه عاجز

عن إطعامهم ومنهم من يستغل عاهته فيبرز ذراعه إذا كانت مقطوعة أو ساقه المبتورة. أو ورم قدميه المصابتين بداء الفيل. ومنهم من يقرأ القرآن على نواصى الطرق مادًا كفه للعطاء مدعيًا العمى. ومنهم من يشارك فى استحياء ليوهمك أنه من أسرة كريمة أخنى عليه الدهر. ومنهم من يتزيا بزى العمال. ليلقى فى روعك أنه عامل عاطل مفصول عن عمله، ومنهم من يرسل لحيته حتى تضرب وسط صدره، وقد لاث عمامة حمراء وأرسل من عنقه مسبحة طويلة لتظنه أنه من رجال الصلاح، ومنهم من يحمل مبخرة ويطوّحها فى يده ليسطع دخانها المثار العطر فى وجهك وهو يتمتم بالصلوات. ومنهم من تحتجب بقناع أبيض وهى فى رداء أبيض وقد وقفت تصيح: يا أم الكرام يا سيدة مدعية أنها من شيعة السيدة زينب بنت الإمام على. ومنهم من يدعى أنه من شيعة البيومى، ومنهم من يدعى أنه من شيعة الرفاعى، ويحمل هؤلاء عادة الثعابين غير السامة يسلطونها على وجوههم تلعقها. موهمين الناس أنهم محصنون من سمومها لاتصالهم الروحى بالرفاعى، الذى لا أدرى ما صلته بالثعابين والسيطرة عليها. ومنهم من يقود قردًا مدربًا يرقصه. ومنهم من يصحب قردًا وحمارًا وجديًا مدربين على ألعاب تضحك لها الصبية. . ومنهم من يقود دبًا ضخمًا وقد ثمل عينيه ليتقى ضراوته وبطشه، وقد حمل رقا يقرعه ليرقص عليه الدب. ومنهم من أتقن ضروبًا من الشعوذة وشيئًا من المهارة. فيحمل على أنفه وأسنانه المقاعد والموائد، ومنهم من يعقد الحلقات فى الأسواق، ويشعوذ بخفة يده فيذهل الجمهور وأبرز مكان لهؤلاء كان فى سوق العصر عند القلعة، ومنهم من يدعى الجنون فيحمل سيفًا خشبيًا ويدعى أنه مجاهد فى سبيل الإسلام وسبيل الوطن. وقد كان من هؤلاء رجل يحمل سيفه الخشبى ويصيح فى الصبيان الذين

تستهويهم غرابته. ويقول: الله حيّ عباس جيّ (عباس الثانى وكان مخلوعًا يومئذ) ثم يكرّ على هؤلاء الصبية بسيفه فيتماوتون أمامه. فتضحك الناس ويتصدقون عليه. ومنهم من كان يقف للمارة وهو ينبئ بالغيب. فيصبح رافعًا عكازته مشيرًا إلى الجهات الأربع وهو يقول. تفرج من هنا، والآ من هنا، والآ من هنا والآ من هنا. ومنهم من ارتفعت منزلته عند نفسه. وعند بعض السذج، فأصبح راوية أخبار، ومبشرًا بالوزارات، يطرق المقاهى والنوادى الراقية، هامسًا للمنتظرين والمؤملين فى الحكم بالبشرى الكبرى. ومنهم من يدعى الأدب، فينظم الشعر المكسور والزجل المبتور. ويقدمه فى رقاع قذرة ليستدر الإعجاب والنقود، ومنهم من يرفع عقيرته بالغناء فى مجالس الشراب مقلدا عبده الحامولى ومحمد عثمان ويوسف المنيلاوى ومحمد عبدالوهاب. ومنهم من يلقى منولوجات كشكش بك، وعبدالله شداد، وحسن فايق، وحسين المليجى. ومنهم من يحمل كمنجا، ويطرق المقاهى والمطاعم، ويوقع عليها أنغامًا عربية وغربية. ومنهم من يحمل ربابة. ويطرق بها المقاهى البلدية يشيد عليها ببطولة أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة والزير سالم وعنترة بن شداد: ومنهم من كان يلم برواد ملهى ألف ليلة وليلة. والا لدراتو القديم والجديد وقهوة إلياس فى الأزبكية. يصفق للمغنين والمغنيات ثم ينثر حبات من الفول واللب على الموائد، ويتقاضى أثمانها مضاعفة، ويسمى هؤلاء بالمطيبين وأشهرهم: بحر، ومنهم من يحمل صندوقا موسيقيًا بيده. وربما صحب معه آخر يرقص ويقرع بالدف على نغم الصندوق الموسيقى. ومنهم جماعة كَعكُم. الذين يلبسون طرابيش بأزرار طويلة يتصافقون وهم ينشدون أزجالا متنقاة:

المعمّم المبشّر بالوزارة

وقد احتفل جماعة من المماليك بهؤلاء الشحاذين فأقاموا لهم تكايا يأكلون فيها ويشربون وينامون بغير أجر مدفوع إلاّ صلة البلد والجنس بينهم وبين هؤلاء الشحاذين، ومن أشهر الشحاذين فى القاهرة: ذلك الأسود الأنيق الذى كنت تراه دائمًا فى مقصف محطة مصر، يستقبل الغادين والرائحين، ويستجديهم، وذلك المطرب الممثّل الذى له فراسة الكواسر فى الانقضاض على الضحايا، وذلك المعمّم المبشّر بالوزارة والحكم، والعالم بخفايا السياسة العليا. وذلك الكفيف البصر النافذ البصيرة الذى كان يقف دائمًا فى شارع الخليج المصرى على ناصية شارع الأزهر معتمداً على عصاه، وهو يصيح فى عربات الترام قائلا: إطلع يا نمرة ٥ اطلع يا ٢٣ اطلع يا نمرة ٧ ولم أره أنه أخطأ مرة فى نمر هذه العربات قط.

ونوادى هؤلاء الشحاذين فى الغالب الأعم: أمام أضرحة الأولياء، وأشهر هذه النوادى: الباب الأخضر فى الحى الحسينى، وبين ضريحى العتريس والسيدة زينب، وسائر هذه النوادى فى الطرقات وحول سينما ديانا ونفق شبرا.

وفى أوائل القرن العشرين: كان شحاذ مائل العنق يلبس طرطوراً مربوطًا بطبل وهو يقرع على هذا الطبل، ويصيح: يا بنت باريز يا رقاصه، يا بنت باريز.

الظـــــرفـاء

لا شك أن الخلفـاء من الفـاطمـيين كـان لهـم ندمـاء من الظرفـاء يسامرونهم ويضاحكونهم كما كان لخلفاء بنى أمية مثل الوليد بن يزيد الذى كـان يصطفى أشعب الطماع . كـمـا كـان الخلفاء من بنى العباس كـذلك . فـقـد كـان للهـادى نديم ظريف هو عـيـسى بن دأب . وكـان للرشـيـد : أبو مـريم الحنفى : وللأمين : حـسين الخليع ، ولامـراء فى أن الملوك فى كل العهود لا تخلو حواشيهم من هذا الصنف من الناس .

ولكن الكتب التى بين يدى تفصح عن وجود أمثال هؤلاء فى الدولة الفاطميـة . ولعل ذلك مرجعه إلى تظاهر خلفاء هذه الدولة بالتزمت الذى كانت توجبه السياسة الفاطمية لإيهام الناس أنهم من أسرة فاطمة التى لا يجب أن يعرف عنها الناس العبث واللهو . وأنهم ليسوا كبنى العـباس منافسيهم الذين اشتـهروا بحب السمـاع والمرح ومـجالسة الظرفاء .

ولم نعلم ذلك أيضًا عن الدولة الأيوبية ، ولعل ذلك مرجعه لقصر عهدها وانشغالها بالحروب الصليبية .

ثم المماليك البحرية ، وللمؤرخ العـذر فى إغفال ظرفائها . فـقد كانت تتخاطب بلغة غير اللغة العربية .

ولكن نظام الســترية، وهـذه الكلمـة التـركـيـة الأصل مـعـروفـة والسترى : المضحك فى اللغة التركية . ولا يكون المضحك إلا ظريفًا . وكان السترى فى عهد المماليك البكوات . وفى العهد العثمانى موظفا يتقاضى راتبه من أموال الدولة لأنه يضحك الوالى، ويسرّى الهم عن السنجق، ولا تزال حفَدَة هؤلاء السترية يُعرفون إلى اليوم فى القاهرة، ومنهم من اقتنى الضياع عن أجدادهم السُّتريّة، فهم فى يسر وبحبوحة من العيش .

الشيخ الليثى يرفض المناطحة

وفى القرن التاسع عشر اشتهر فى القاهرة من الظرفاء : الشيخ على الليثى . وكان أديبًا شاعرًا يقربه إسماعيل الخديو ويحبه .

ذكروا أن نوبار باشا رئيس النّظار يومئذ كان يصحب جماعة من القناصل إلى مقابلة الخديو فى عابدين فبينما هو يصعد السلم مع القناصل إذا بالشيخ على يهبط على هذا السلم . فأحنى نوبار رأسه محيّيا . فما كان من الشيخ إلا أنه أشار بسبابته له علامة الرفض . فخجل نوبار، ولما انصرف القناصل شكا إلى الخديو سوء أدب الشيخ والسخرية به أمام قناصل الدول، فغضب إسماعيل ودعا بالشيخ ليعنّفه . فقال : وماذا فعلت يا مولاى؟ إن سعادة الباشا أشار برأسه يريد أن يناطحنى فأشرت له بأصبعى رافضا، فضحك الخديو .

وكان أزهى عهود الظرفاء : عهد عباس الثانى . فقد كان ذلك الرجل يتكلم دائمًا بالعربية ويحب النكتة البلدية، فجمع حوله جماعة من الظرفاء من خدمه : هم أبو سعيد الجناينى والشيخ عيد، وأحمد

قبودان وكانوا شيوخًا مسنين . حضروا عهد جده إسماعيل ، وكان أولهم بستانيًا فى حدائق قصور إسماعيل ، والثانى من طلاب الأزهر لفظه الأزهر لمجونه واستهتاره فى النوادر ، والثالث كان صيادًا للسمك ، لقيه رجل من حاشية عباس الثانى . فلما لمس منه سرعة الخاطر فى النكتة والنادرة حدّث عنه الخديو فألحقه بحاشيته .

بيتنا مفيهش قبلة

ومن مشاهير الظرفاء فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين : الدكتور بكير . حدث أن جاءه يوما مريض فقير : فلما فحصه قال : أنت لازمك عملية ، فأجاب الرجل بأنه فقير ، فقال يا أخى ما تخافش دى عملية عند الحاتى . وأعطاه ريالا وصرفه ، ومن أشهر هؤلاء الظرفاء : صديقنا الكريم : محمد البابلى الذى بلغ الذروة فى الظرف ، فأصبح حقًا سيد الظرفاء . ومن نوارده : أن أحد المتزمتين فى ا لدين زاره فى داره ، وكان يجلس على الشراب هو وجماعة من أصدقائه ، فطلب منه الرجل سجّادة للصلاة ، وسأله عن القبلة ، فقال : والله بيتنا مافيهش قبلة .

ومن الظرفاء : إبراهيم المويلحى وابنه محمد المويلحى ومحمد توفيق صاحب صحيفة حمارة منيتى . وفؤاد الصاعقة صاحب صحيفة الصاعقة . غير أن ظرفهما كان لاذعا مقزعا . والشيخ إبراهيم الدباغ وأحمد جاد ، ومن الظرفاء : الشيخ قنديل وكان ينادم شوقى الشاعر وعمر لطفى المحامى وحسن رضا المحامى فكانوا يسمرون حتى الصباح . ثم ينصرفون إلا الشيخ فإنه كان يقول : إنه لا ينام ولا يأكل ولا يكتسى وكان فقيرًا بائسًا .

ومن الظرفاء : حافظ إبراهيم الشاعر ، وقد وضعت فيه كتابًا أوردت عن ظرفه ونوادره الشيء الكثير . ومن الظرفاء : الدكتور محجوب ثابت . ومن نوادره أنى كنت أجالسه يوما فى صولت وكان معنا شوقى والشيخ عبدالعزيز البشرى . فدخل أحد أبناء موصيرى الغنىّ المعروف . وكان يصحب أخته وكانت حسناء رائعة فائقة ، فلما بصر بها الدكتور وقف فى وسط المكان وأشار إليها وأنشد :

صونى جمالك عنّا إننا بشر   من التراب وهذا الحسن روحانى

والبيت لإسماعيل صبرى وقد انتحله شوقى . وكان أخوها ظريفًا يعرف الدكتور محجوب ويعرف غرائبه فضحك ودعاه للجلوس معهما .

ومن الظرفاء : الظريف الأشهر : إمام العبد بن أحد بوابى القصر العالى . وكان لا يجارى ولا يبارى فى ظرفه وسرعة بديهته ، وقد أوردت عنه الكثير فى كتاب «حياة حافظ إبراهيم» .

ومن الظرفاء الزجال : خليل نظير الأسود الضخم الشفتين الذى كان لا يفيق من الخمر أبدًا . ومن الظرفاء المشهورين : الشيخ عبدالعزيز البشرى . وقد ترجمت له أيضًا فى كتاب «حياة حافظ إبراهيم» .

ومن الظرفاء : الأديب الصحفى جورج طنوس وكان عظيم البطن فإذا شرب رقص فى المقاهى والكباريهات .

ومن الظرفاء : نعمان باشا الأعسر ، وكان ضخم الجثة سمينا ، غير أنه كان خفيف الظل طيب الروح .

ومن الظرفاء : حفنى محمود باشا ، وقد ذكرته فى كتاب (حياة حافظ إبراهيم) . ومن الظرفاء : وحيد الدين الأيوبى بك ، وكان غريبًا

فى ظرفه، يستعمل المهجور من اللغة. كالألعبان، والثعلبان وطهى يعنى الدكتور طه حسين، وكان يهاجيه.

المضحكخانة

ومن الظرفاء: الشيخ حسن الآلاتى، وكان يتخذ مقهى بلديا بحى السيدة زينب ناديا له ولأصدقائه، ويطلق عليه: لقب المضحكخانة، وكان يشترط لدخول ناديه وضع رسالة فى التنكيت والقفش، حتى إذا حازت عنده قبولا ضم مقدمها إلى أعضاء النادى.

ومن الظرفاء المعروفين: حسين الترزى، وكان ضئيلا أعشى البصر، ومن نوادره: أنه كان يجالس صديقه خليل خير الدين، وهو يكاد يكون أعمى، ولذلك ورث عن أبيه معاشه كله، وذلك جائز فى قانون معاش الوالى محمد سعيد.

فبينما حسين معه إذا بشحاذ يمر بهما يطلب صدقة، فأبصر سوء حال عينى خليل، فدعا له قائلا: الله ينورهم لك، فإذا بحسين الترزى يزجره غاضبا (امشى الله يخيبك أنت عاوز تقطع عيشه).

وعند ذكر خليل خير الدين، يحسن بنا أن نذكر ظرفاء شارع خيرت فالرجل من ساكنيه، وكان هذا الشارع، أشهر شوارع القاهرة كلها «ينسب إلى خيرت بك والد محمود خيرت المحامى المعروف» فى كثرة ظرفائه، وكان مجمعهم هناك فى مقهى مشيدى أمام وزارة المالية، وهم: إمام العبد، وأحمد الحلوانى وخليل خير الدين، وسليمان طبيخة وحسين الترزى، وعبدالسميع عرابى بن الزعيم عرابى، وسليمان جبريل، وكان حافظ إبراهيم الشاعر يلمّ بهذا المقهى أحيانا.

ومن الظرفاء : المعلم دبشة الجزار ومن نوادره أن السيدة أم كلثوم فى أول نشأتها كانت تغنى بصحبة أبيها الشيخ إبراهيم - رحمه الله - فمرض ليلة وحدث أنها جلست للغناء فى مقهى البوسفور ، وكان المعلم دبشة حاضرًا ، فافتقده ، فسألها عنه . فقالت : والله ده عيان الليلة يا معلم ، فقال لها : طيب ما جبتهش نطل عليه ليه .

والسيدة أم كلثوم ظرفها متعالم مشهود ، يعرفه أهل القاهرة كلهم .

والسيدة نبوية موسى كانت من الظريفات المشهورات بسرعة البديهة وقوة الحجة ، أحضرها يوما الأستاذ فؤاد سراج الدين وكان وزير الداخلية وكانت السيدة خصيمته فى المذهب السياسى ، فنهرها قائلا : أنا فلاح أضرب وأنطح ، فقالت له : ما هو باين على راسك .

ومن الظرفاء المعاصرين : محمد معاذ وهو آفة من الآفات . تراه متصوفًا آونة ، وعربيدًا آونة أخرى . وحمام الأديب الشاعر . والصديق أحمد رامى شاعر الأغانى وعبدالله حبيب الكاتب وصالح السودانى الذى يحفظ كل مقال نشر فى صحيفة . وبديع خيرى صاحب مسرح الريحانى ورمزى نظيم الزجال الشاعر . وحسن فايق الممثل ، وإسماعيل يس المعروف ، وأحمد الحداد صعيدى ساعة لقلبك ، وغيرهم كثير .

ومن ظرفاء أولاد البلد فى أوائل القرن العشرين : السيد قشطه الممثل الهزلى ، وأحمد فهيم الفار الممثل الهزلى أيضًا . ومحمد ناجى المضحك والحاج على ، وكانوا يجتمعون جميعا فى مقهى بلدى بالدرب الأحمر ، يتنادرون بالقافية واشمعنى ، فيأتون بالمفارقات الخيالية الغريبة .

ومن مثقفى الظرفاء : كامل الشناوى الصحفى وأحمد نجيب المالى

المعروف، ونجيب الهلالى رئيس الوزارة الأسبق، وأحمد زيوار باشا رئيس الوزارة أيضا، وداود بركات الصحفى، وتوفيق فرغلى الصحفى، وتوفيق حبيب الصحافى العجوز والشيخ سيد المرصفى أستاذ الأدب العربى للدكتور طه حسين فى الأزهر، والشيخ محمود زناتى الأديب ومحمد محمود جلال الزجال، وعبدالله نديم الثائر الصحفى، وعبدالرحيم محمود وأحمد عبدالرحيم المصححان بدار الكتب المصرية وصالح البهنساوى والشيخ أحمد العسكرى المحرران فى الأهرام وغيرهم.

أعيـــــادهــا

تنتظم أعياد القاهرة قسمين : الأعياد الدينية ، والأعياد القومية .

والقسم الأول : له المكانة الأولى فى نفوس أهل القاهرة لأنه يمس أقدس عاطفة تسكن قلب الإنسان وهى العقيدة . وأشهر الأعياد الدينية قاطبة : عيد الفطر ، وعلة ذلك واضحة ، فهو نهاية سعيدة لصوم طويل . وحرمان كثير واحتفال بالتقوى دام طيلة ثلاثين يومًا أو تسعة وعشرين إذا قضى الهلال بذلك .

وفى الحق أن الاحتفاء بهذا العيد يبدأ من غُرة رمضان فالنفوس متعلقة به والقلوب تهوى إليه . وليالى رمضان تكاد تكون أعيادًا كلها . ففيها يتزاور الناس ويتسامرون ويبتهجون ويسمعون القرآن العظيم وغير القرآن من أغان ونوادر وملح .

وكانت هذه الليالى فى عصر القاهرة الأول والوسيط يحتفل بها الناس فى دورهم بين سماع القرآن وتلاوة الأحاديث النبوية . وإقامة الأذكار وإنشاد الأشعار الصوفية .

ولا يزال لهذا الشهر الأغر عظمته وبرّه وخطره . فله السطوة الكبرى حتى على الخارجين عليه ، والمنفلتين من قيوده سرًا . فليس

لواحد من هؤلاء أن يجاهر بمعصية أو بفطر وإلاّ لحقته لعنة ا لناس فاستتر خجلاً معتذراً. وله اليد الطولى فى البر بالفقراء فما جاع فيه فقير أبدًا. فالموائد قديمًا وحديثًا تبسط للفقراء فى الدور وعلى أبواب الدور. يلتهمها كل من أراد من المحتاجين إليها.

وفى العصر الحديث خرج الناس فى القاهرة فى ليالى رمضان إلى المقاهى ودور اللهو يسمرون ويلهون. وفى الحق أن رمضان ليله نهار ونهاره ليل.

وأحفل أمكنة للسهر فى رمضان: الحى الحسينى. حيث يتوافد الأغنياء والفقراء: المسلمون منهم والمسيحيون والفنانون والصائمون، والمفطرون إلى مقاهيه التى تنضح بالقدم وتذكر السَّمار بالعهود الغابرة من حياة القاهرة.

وفى العشرة الأخيرة من رمضان، يتهيأ أهل القاهرة لاستقبال العيد، وذلك بشراء الجديد من الثياب، وصنع الكعك.

وصنع الكعك عادة فاطمية أخذها الفاطميون عن الدولة الإخشيدية فكان القصر الفاطمى يأمر لدار الفطرة بمقادير هائلة من الدقيق والعسل والفستق المقشور والبندق، وكانت دار الفطرة هذه تابعة للقصر الفاطمى، وكان يقوم بعمل الكعك مائة عامل.

وكان من مراسم الخلافة الفاطمية فى استقبال عيد الفطر: أن يمشى الوزير مع كبار رجال الدولة إلى أبواب القصر الكبير فى الصباح الباكر لاستقبال الخليفة، والسير فى معيته، وكان يركب فى هيئة رائعة من الأبهة والجلال، حتى خارج باب النصر، حيث تكون قد هيئت مصلى مكشوفة فى صدرها قبة كبيرة بها محراب ومنبر، فيصلى الخليفة صلاة العيد، وبعد الصلاة يعود إلى القصر، ويجلس إلى نافذة تشرف على

الإيوان الكبير حيث يكون قد أعد سماط ضخم يحوى كميات هائلة من أنواع الكعك .

ثم يفتتح السماط ومعه الوزير وكبار الدولة ، ويصيب منه الشيء اليسير ثم يأمر الناس على مراتبهم بالدخول إلى السماط ، فينتهبونه أكلا وأخذًا ثم يتوافدون على الخليفة بالتهنئة بالعيد مع الدعاء والابتهال ، ويبدأ الخليفة بعد ذلك فى استعراض الجيش ثم فى إهداء الهدايا إلى الحاشية والرعية .

وفى عهد المماليك : كانت تقوم هذه المراسم بعد صلاة العيد فى الميدان تحت القلعة وفى القصر الأبلق بالقلعة . وفى الحوش السلطانى .

وظل هذا النظام قائمًا حتى تبدل فى العهد العثمانى ، فالوفود تذهب إلى القلعة مقدمة تبريكها ودعاءها للسلطان العثمانى .

وجاءت بعد ذلك الأنظمة الغربية ، فدخل البروتوكول الغربى فى قصور الولاة والخديويين من آل محمد على .

فأصبح نظام التهنئة بالعيد : حضور الأعيان فى لباسهم الرسمى حيث يستقبلهم الوالى أو الخديو مستعرضًا محييًا ، وتقلص هذا البروتوكول ، فأصبح يكتفى بتقييد الأسماء فى دفاتر منصوبة بديوان التشريفات فى عابدين .

وأكثر الطوائف احتفالا بالعيد فى القاهرة : طائفة الأطفال ، فهم فى جزل وسرور وثياب جدد فرحين بنقودهم التى حصلوها من آبائهم للمناسبة السعيدة ، وينصرف أبناء الشعب منهم إلى الأراجيح يتأرجحون فيها وإلى ركوب عربات الكارو ، وهم يصيحون ويضجون ويهزرون تارة بألفاظ مستقبحة .

ولا يزال أهل القاهرة يحتفلون بالعيد بالكعك والسمك المملح المعروف بالمناسبة منذ القرن الثالث عشر الميلادى.

ويستقبل العيد بالمدافع، تطلق له فى جميع أوقات الصلاة فى أيامه الثلاثة.

وكان الناس يتزاورون قديمًا فى أيام العيد للتهنئة، وهم فى ثياب جدد وقد قلت هذه العادة الآن فى القاهرة، وأصبحت تقتصر على البطاقات ترسل فى البريد، حتى هذه العادة أيضًا أخذت فى الزوال والقلة.

وأراد جماعة من أبناء الذوات أن ينصرفوا بالعيد إلى حفلات عيد الميلاد المسيحى حيث تقام الحفلات والرقص والمجون وشرب الخمر والابتهاج بالمرح، ولكنهم لم يفلحوا للتزمت الماثل فى الأعياد الإسلامية.

عيد النحر

كان الخليفة الفاطمى يذهب إلى ذبح الأضحية، ويكون فى معيته الوزير، وقاضى القضاة والأمراء، ويذبح بيده عددًا من الأغنام توزع لحومها على موظفى الدولة والفقراء وطلبة العلم والأيتام.

وكانت تمد الأسمطة وعليها لحوم الأضاحى من الجمال والجاموس والبقر والغنم. فيأكل الجميع، وينتهب منها من يشاء من الفقراء والمحاويج.

وكان السلطان فى عهد المماليك، يأمر المرقدار بطبخ لحوم الأضاحى وتوزيعها ناضجة مطبوخة مع الفريك والخضر والأرز.

وكان السلطان فى ذلك اليوم يشق الطريق راكبًا فى حرسه، وقد أعدت له الصرر المملوءة بالدنانير ليبدرها على الناس.

وفى عهد انحطاط الدولة المملوكية، كان بعض المماليك يغيرون على الفلاحين فيسلبونهم الخراف للتضحية بها.

وظلت عادة التضحية فى القاهرة قائمة إلى اليوم. وظل بعض الموسرين يذبحون أضحية أو أكثر ويقطعون لحومها جزءًا جزءًا، ويعطون الفقراء من هذه الأجزاء المقطوعة، ومن الندرة أن تجد فقيرًا فى القاهرة لا يتذوق اللحم فى هذا العيد الأكبر.

أما مراسمه الأخرى من الصلاة والتهنئة والاحتفاء فهى تجرى مجرى مراسم عيد الفطر.

العيد الهجرى

كان للفواطم احتفاء بهذا العيد، وكان من عاداتهم فيه أن يعمل طباخو القصر أنواعًا من لحوم الخراف، واللبن المطبوخ وأنواع الحلوى وتفرق على أصحاب المناصب الرفيعة والعسكريين.

وكان الخليفة الفاطمى يركب فى هذا اليوم فى هيئة جليلة. ثم يسير فى القاهرة. ثم يأمر بالعطاء للحاشية والموظفين، وقد جرى الأيوبيون والمماليك هذا المجرى أيضًا فى الاحتفال بهذا اليوم.

وقد تراخى أهل القاهرة بعد ذلك فى الاحتفاء بهذا العيد، حتى جاء مصطفى كامل ونادى بالاحتفال به وحمل الحكومة على جعله يومًا رسميًا تعطل فيه أعمالها، وتعد السراى دفاتر لقيد أسماء المهنئين، وجاءت الثورة فعرفت لهذا اليوم العظيم حقه، فزادت فى احتفائها به.

المولـــد النبـــوى

كان الفاطميون يقدسون هذا العيد ويتصدقون فيه ويقومون بالصلاة على النبى وتمجيد اسمه ويشاركهم فى ذلك الأيوبيون والمماليك .

وفى القرن التاسع عشر حتى العهد القريب كانت تجرى مراسم هذا العيد هكذا، يجتمع أصحاب المذاهب من بيومية ، ورفاعية ، وبكرية وشاذلية وصوفية وغير ذلك فى ساحة القلعة ثم تسير كل طائفة من هذه الطوائف ببيارقها وطبولها ومزاميرها ، مخترقة أحياء الحبانية وسوق السلاح والحى الحسينى ، حتى باب الفتوح ، ثم تنحرف إلى العباسية حتى حى الخفير ، حيث لكل طائفة فى هذه الطوائف سرادق خاص ، كما أن لكل وزارة من وزارات الحكومة سرادقًا ، وكان للخديو سرادق ضخم يتوسط هذه السرادقات جميعها ، وكان يقف وحوله الوزراء ورؤساء هذه الطوائف الآنفة الذكر فيستعرض قسما من الجيش ثم جميع هذه الطوائف وهى مارة أمامه . فكان إذا بلغته طائفة منها دعت له ثم للإسلام ، ثم تنصرف إلى سرادقها حيث تقوم بالذكر عامة الليل ، وينصرف الخديو بعد ذلك وتفرق الحلواء على المدعوين فى سرادقات الوزارات ، وفى الليل تطلق الصواريخ ابتهاجًا وفرحة بالمولد الكريم ويجتمع عدد ضخم من سكان القاهرة للمشاهدة واللهو .

يوم عاشـــوراء

كان الفاطميون يسمون هذا اليوم بيوم الحزن لأنه ذكرى لمقتل الحسين بن على فى وقعة كربلاء بالعراق ، فتعطل فيه الأسواق ويعمل

فيه سماط يسمى سماط الحزن، ولكن الأيوبيين كانوا يتخذون منه يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون فى المطاعم، ويصنعون الحلواء ويتزينون، وذلك نكاية فى أهل الشيعة، وكذلك كان يفعل المماليك، ولا يزال بعض أهل القاهرة يصنعون اليوم ضربًا من الحلواء يسمونه بالعاشوراء عند مرور هذا اليوم.

عيد الغــــدير

احتفل الفاطميون بهذا العيد، لأنه ذكرى يوم الغدير، قيل عن النبى صلوات الله عليه أنه قال عند وقوفه بهذا الموضع، من كنت مولاه فعلى مولاه، والغالب أن هذا الحديث من دعايات الفواطم، لترويج دعوتهم السياسية، وكان من عادتهم فى هذا اليوم: تزويج الأيامى، وتفريق الهبات ونحر الضحايا وتوزيعها على السادة والفقراء، ولم يعن أهل القاهرة ولاحكامها بهذا العيد بعد زوال دولة الفواطم.

الأعياد الفاطمية

وكانت تحتفل القاهرة تحت ظل الفاطميين بأعياد أخر، هى: مولد على بن أبى طالب، ومولد الحسين - ولا يزال الاحتفال جاريًا بهذا إلى اليوم - ومولد الحسن، ومولد فاطمة الزهراء، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصف رجب، لا تزال القاهرة تحتفل بها، وليلة رمضان - لا تزال القاهرة تحتفل بها إلى اليوم - وسماط رمضان، وليلة الختم، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج، لا تزال القاهرة تحتفل به إلى اليوم وسنتعرض له بعد ذلك، ويوم النوروز.

وسنتعرض له أيضًا، ويوم الميلاد، وسنتعرض له، وخميس العدس، وأيام الركوبات .

المحمــــل

أوّل من سيّر المحمل وابتدعه الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥هـ، وكان يطوف القاهرة وعليه الكسوة التى كانت تقدّم للكعبة، وكانت فى أول أمرها تنسج فى مدينة تانيس من أعمال دمياط، ثم انتقل عملها إلى حى الخرنفش فى عهود أولاد محمد على .

وكان المحمل يخترق شوارع القاهرة، ثم يركب بعد ذلك البحر حاملا الكسوة لتقديمها إلى الكعبة لكسوتها، ولم يزل كذلك من أيام الظاهر بيبرس حتى الملك فؤاد، وكان عادة يبدأ سيره من القلعة، وينتهى هذا السير فى العباسية .

وقد اعترض عليه وعدّه بدعة جماعة من الوهابيين هاجموه فى مكة، وحدثت ملحمة بين حرس المحمل وجماعة من متعصبى الوهابية، زُهقت فيها أرواح الفريقين، فرأت مصر أن تبطل هذه العادة، وترسل الكسوة إلى الكعبة فى غير احتفال .

وكانت دواوين الحكومة فى القاهرة تغلق أبوابها احتفاء بالمحمل والكسوة، فلما بطل الاحتفاء بهما بطلت عطلتهما .

أعياد المسيحيين

كانت القاهرة كلها تحتفل بأعياد المسيحية فى العهد الفاطمى، فكان إذا جاء ميلاد المسيح فى السابع من يناير، تهادى الناس بالزلابيا،

والحلواء القاهرية، والجلاّب والسمك، وظل المسيحيون يحتفلون بهذا اليوم فى الكنائس التى يطرقونها ليلا للصلاة ثم بعمل الكعك، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين فى عيد الفطر.

ثم جاء بعد ذلك المسيحيون الغربيون، فاحتفلوا بهذا اليوم، يوم ٢٥ ديسمبر، فى بهجة وشرب ورقص، وإعداد أنواع من الشجر الأخضر يزيّنونه بالمصابيح والبهرج.

واحتفل المسيحيون أيضًا مع أهل القاهرة من المسلمين فى العهد الفاطمى بليلة الغطاس، حيث كان يذهب الجميع إلى النيل للقصف واللهو بالمزامير والطبول، وكان المسيحيون خاصة يغطسون فى النيل وحدهم، وظلت هذه العادة قائمة إلى اليوم فى القاهرة، وإن كانت مقصورة على الأطفال حديثى الولادة الذين يغطسونهم فى أوانى ليطهروهم للدين المسيحى.

وكان أهل القاهرة جميعهم يشتركون فى الاحتفال بيوم النوروز، والاحتفال بهذا اليوم مأخوذ عن الفرس، أخذه أقباط مصر عنهم، وشاركهم القاهريون جميعًا فى الاحتفاء به، فكان فى العهد الفاطمى والعهد الأيوبى وبعض العهد المملوكى، تعطّل الأسواق، ويهرع الناس إلى اللهو والمجون والغزل المكشوف، ورش الماء فى الوجوه والثياب، والعبث الصارخ، وتعاطى الهدايا، وشرب الخمر.

ولم يزل الاحتفال بهذا اليوم الذى هو أول السنة القبطية له شأن فى العربدة والخروج عن الآداب، حتى أبطله السلطان برقوق، أحد السلاطين البرجية.

ولا يزال أقباط القاهرة يحتفلون بحدّ السعف وخميس العهد، وعيد القيامة، وغير ذلك من أعياد القديسين.

زفـــة العجـــم

فى عاشوراء، كانت تقام حفلة العجم الدينية، ففى الصباح الباكر تغلق أبواب المشهد الحسينى بالسلاسل الحديدية، ويقوم عليها حرس من البوليس من جميع الجهات بحراسة قوية، وتبتدئ بعد ذلك زفة العجم وتكون بعد الظهر، وتتكون من غلامين صغيرين لا يتجاوز سنهما عشر سنوات جميلى الوجه يمتطيان جوادين يرمز إليهما بالحسن والحسين. ويكونان دائمًا فى وسط الحفل، الذى يضم أغلب الإيرانيين القاطنين فى القاهرة، وعند ذلك يسير الجميع: جماعات فى صفوف، كل صف يتكوّن من أربعة. نصفهم الأعلى عار. وفى أيديهم سلاسل حديدية، وخلفهم جماعة أخرى كل جماعة تنتظم أربعة من الرجال، فى أيديهم سيوف مشهّرة وسكاكين ومعهم جماعات أخرى. تحمل السلاسل، وينادى الجميع صائحين: حسن حسين، ويرضون أصحاب السلاسل صدورهم وظهورهم بهذه السلاسل، والذين فى أيديهم السيوف والسكاكين، فهم يضربون بها جباههم فيسيل دماؤهم على وجوههم وصدورهم.

ويبدأ الموكب فى السير من المشهد الحسينى مخترقا شارع الموسكى حتى المعبد، وكان فى منزل فى أول شارع الموسكى، وتأخذهم نوبة من الجنون عند المشهد الحسينى، فيضربون ويطعنون أنفسهم، ويحاولون اقتحام أبواب المشهد الحسينى، فيحول بينهم وبين الأبواب المغلقة الحرس البوليسى المقام هناك، وعند نهاية المطاف فى المعبد يكون هناك كثير من السائحين، وبعض كبار المدعوين فينفض هذا القطيع الملوّث بالدماء، ويأوى إلى غرف المعبد العديدة، ويكون هناك قنصل إيران

ووجهاء الجالية الإيرانية فى استقبال الضيوف السالف ذكرهم، وبعد ذلك ينتهى الحفل الدموى الذى أبطلته الحكومة المصرية سنة ١٩١٤ .

الأعياد القومية

وفاء النيل، قطع البحر جبر البحر

كان لهذا العيد القومى أثر بالغ فى عهود القاهرة كلها، فكان الخلفاء الفواطم والسلاطين الأيوبيون والمماليك، يحتفلون بهذا اليوم احتفالا رائعًا، كان الخليفة أو السلطان يركب فى هيئة ملوكية مع وزرائه ورجال دولته . إلى حيث المقياس الذى يكون قد بلغ ستة عشر ذراعا، ويكون قد أقيم له سرادق ضخم وسيع لينزله هو ومن معه من حاشية ووزراء، ويحمل له كسوة بألف دينار، ولوزيره حلة بثلثمائة دينار، وللحاشية حلل دون ذلك، كما يحمل للملاحين الذين ينتظمهم الموكب وللقائم على شئون المقياس حلل أيضًا .

وعند ذهاب الخليفة أو السلطان إلى هناك، يتخذ مركبا من موضع قريب من المقياس، ومعه الوزير وكبار رجال الدولة، ثم تتبعه سائر الحاشية فى مراكب أخرى، ويكون الجند وقوفًا على الشاطئ للتحية والحراسة حتى إذا بلغ الركب السد الحاجز المقام بين النيل والخليج، أسرع العمال بفتحه فتنساب المراكب من النيل إليه، وعند ذلك توهب الهبات، وتفرق الدنانير على الموظفين والحاشية، وكان لهذا اليوم جلاله عند الخلفاء والسلاطين، وتقلص شأن الاحتفاء بوفاء النيل حتى اقتصر فى أواخر القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين على تزيين مركب تسمى بالعقبة، تبدأ السير من ناحية بولاق، وتنتهى إلى

قسم فم الخليج، حيث يكون سرادق معدًا. فيه محافظ القاهرة ورئيس المحكمة العليا الشرعية وبعض كبار الموظفين وعلماء من المشايخ، فتتلى عليهم وثيقة وفاء النيل.

وكان من عادة بعض الفقراء من أهل القاهرة، الطواف فى القاهرة وهم يصيحون، البحر زاد عوف الله، غرق البلاد عوف الله، ويحملون بعض السلع يستجدون بها الناس.

شم النسيم

الظاهر أن الاحتفاء بهذا العيد قديم العهد، يرجع إلى قدماء المصريّين، فهو عيد الربيع، أو عيد الفصل، ولا يقع إلا فى يوم الاثنين، ويختلف فى المواقيت، ويقول بعض المؤرخين: إنه تخلّف عن عيد النيروز الآنف الذكر.

ومن عادة أهل القاهرة فى يوم شم النسيم: شمّ البصل وتعليقه فوق رءوس الأطفال فى ليلته، ومن عادتهم أيضًا: أكل الملانة والخصّ، وأكل الفسيخ ومعه البيض الملوّن.

وكان السقاة فى القديم، وقبل أن تنشأ شركة المياه التى أقيمت فى عهد إسماعيل الخديو، يحملون فى قربهم الماء عند منتصف الليل، ويذهبون بها إلى زبائنهم ويصبّونها فى الجرار والأزيار.

ومن عادة شباب أهل القاهرة: النهوض عند الفجر، والرّواح إلى الحدائق العامة مع زوجاتهم وأولادهم وطعامهم وشرابهم، فيمرحون ويلعبون ويقطفون الأزهار والرياحين، ويجعلونها طاقات بهيجة يحملونها فى أيديهم.

ومن عـادة المجّان من شـبـاب القـاهـرة أيضًا : شـرب الخـمـر فى ليلة اليـوم وظهـره . ويفـضـلون من أنواع الخـمـر ، الزبيب ، وقـد يعـربد بعضـهـم ، فيأتى بالقبيح من الأفعال كالتعرض للنساء والمشاحنات وإيذاء الناس .

وشم النسيم : موسم الحانات ، وعلى الأخص الحانات الرخيصة ، مثل حانة العنبة فى شارع محمد على ، وحانات الفجالة ، وحانات شارع كلوت بك وبوظة الشجرة ، وبوظة بولاق ، وبوظة الظاهر ، وغير ذلك من الحانات والبوظ .

أعياد أخرى

ومن أعيادها القومية : عيد الجمهورية ، وعيد ذكرى الثورة ، وعيد الدستور الجديد ، وعيد الأم ٢١ مارس وعيد انتصار السويس وعيد اتحاد مصر وسوريا .

أعياد منقرضة

عيد الاستقلال ، وعيد ١٣ نوفمبر ، وعيد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ومطلع المحمل ، وعرض الكسوة ، ورجوعهما ، وجلوس ومولد أبناء محمد علي ، الخديويين والسلاطين والملوك .

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر فبراير 2020 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

هذا كتاب مجهول الهوية والنسب، فحتى مؤلفه الأستاذ أحمد محفوظ لا نعرف له مهنة أو عنواناً أو عمراً، كما لا نعرف له إنتاجاً أدبياً أو معرفياً سابقاً أو لاحقاً...

وصلنا الكتاب بالصدفة كنسخة خطية جميلة وليس الأصل، ثم إذا بنا نكتشف له فيما بعد، طبعة شعبية من القطع الصغير رديئة غير معتمدة ومليئة بالأخطاء، بينما حرص الأستاذ أحمد محفوظ أن يذكر بين سطوره أن ثمة علاقة أدبية كانت تربطه بالشاعر الكبير حافظ إبراهيم وكم كتب عنه، مما يعنى أنه كان معمرا أو كبيرا فى السن عام ١٩٥٨.

إذن لا مفر من النظر إلى كتاب «خبايا القاهرة» وتقييم محتواه التاريخى والمعرفى وكأنه سقط المتاع الذى يتخلف أحيانا عن المسافر العجول، لا بالمعنى التافه الذى يفتقر إلى القيمة المادية أو المعنوية للأشياء، وإنما لافتقار المؤلف للحرص الواجب وحسن التدبير للحفاظ على متاعه المعرفى من النسيان والضياع فى زحمة الحياة، خاصة أن هذا الكتاب نادر فى موضوعه واختيار مادته!

يوسف الشريف

دار الشروق
www.shorouk.com
6 221102 022071
تصميم الغلاف عمرو الكفراوى


Exclusive
For
www.ibtesama.com